و اصطبر عليها

زينب بجي

و اصطبر عليها
زينب حجي
تدقيق لغوي : عبد الله ابو الوفا
تصميم الغلاف : عمرو علاء
رقم ايداع : ٢٠٢٠/٣٦٦٠
ترقيم دولي : ٩٧٨-٩٧٧-٦٥٩٤-٩٢-٥



دار فصلة للنشر والتوزيع
العزيزيه - منيا القمح - مصر
٠٠٢٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١
fasla.pub@gmail.com
Www.FaslaPub.Com

الطبعه الأولي يناير ٢٠٢٠



واصطبر عليها

زينب بجي



إهداء

إلى كل من سدوا ثغورى بحبهم وإيمانهم بى؛

إلى أمى أولًا : حبيبتى تزرع فى ثغورى زهورًا وتسقيها بالحب.

إلى أبى؛ الذى ما زالت كلماته تدفعنى للمضى للأمام، حتى بعدما فقدت الأمان بفقدانه، قال: «أنت مميزة»، ثم رحل وتركنى أختار، إما أن أتميز مثلما أراد وإما أن أُطفأ.

إلى إخوتى؛ الذين لولا أياديهم التى كانت تدفعنى للنهوض كلما سقطت لاستسلمت منذ وقت طويل.

إلى صديقاتى؛ فلولا قلوبهم التى كانت تحتوينى كلما اتجهت نحوها لتحطم قلبى منذ زمن.

إلى كل الذين أُحب؛

إن كلماتكم الطيبة ليست مجرد كلمات، إنها أكتاف نميل عليها برؤوسنا بمجرد أن تنطقون بها، فأكثروا منها فإن قلوبنا المتعبة تنتظرها حتى تستريح.

والحمد لله هو بداية كل شىء وختامه.

والحب-إن كان حبًا- لم يكن إلا عذابًا.

الرافعي

علي

فجأة وبعد مُضى ساعة!

لا أظن أن الأمور تسير كما كنت أتصور!

لا أستطيع أن أتنفس!

لماذا أشعر بهذه الوحدة؟!

لماذا لست مرتاحًا؟!

أشعر أن المكان يضيق بى.

يمر الناس حولى وأصوات ترتفع وأيادى تلوح وأجساد تصدمنى، وأنا لا أشعر بأى شىء إلا غربة مفاجئة حتى عن نفسى.

كيف حدث كل هذا فجأة؟!

رفضت أن يوصلنى معاذ لأى مكان. تركته وخرجت مسرعًا كأنى أهرب من شىءٍ ما، خرجت من القاعة وكأنى أخرج إلى عالم آخر. تنفست الصعداء وأنا أبتعد عن الناس، ابتسمت لأنى أشعر ولأول مرة أن قلبى وعقلى نضجا، شعرت أنى تغيرت ولأول مرة للأفضل، قبل عام كانت

تشغل بالى تفاهات الأمور، ولا أهتم بشىء سوى سعادتى وتمضية بعض الوقت فى"أى شىء"، ابتسمت لأنى عَلمت ماذا بت أريد، وما هو المجتمع الذى أحتاج أن أزرع نفسى فيه لأحصد فى قلبى ما أريد ومن هم الرفقاء الذين يفترض علىّ أن أبحث عنهم.

ولأول مرة أستشعر الفرق بينى وبين نفسى التى أريد.

(ولعل قلبك عندما نفرَ من المعاصى كان يريد أن ينبهك. لعل الله يريد أن يُبصرك الطريق).

أوقفت سيارة أجرة وأخبرت السائق عن وجهتى، عدت بظهرى إلى الخلف وعيناى تطالعان الطريق من حولى، انعاكاسات الأضواء، لافتات المحلات، تركت عينى تخترق وجوه الماريين والواقفين، وعقلى يرتب لكل منهم حكاية، أدعوا لكل من تقع عينى عليه، لم أكن أفكر فى الدعاء، يتغير الدعاء بدون تفكير بإلهام من الله لكل من حولى، أرى أحدهم فأدعوا له بالرزق، وللآخر بالسعادة، ولثالث بالصبر، ولرابع بصلاح الحال، لم أنتبه من شرودى إلا أمام البيت.

توقفت السيارة، دفعت للسائق ولم أنتظر، ابتسمت له ثم ذهبت متجهًا إلى باب العمارة، أوقفنى صوت الإمام وهو يرفع صوته بالأذان:"الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله..."، يا

الله كان وقع الأذان "على" مسامعى مذهلًا، كأنه موجه لقلبى مباشرةً، كأنه أول أذان يتردد فى أذنى، وكأن الله يطلب قدومى إلى بيته دونًا عن غيرى، وكأن الله ينبهنى من غفلتى، كنت أصلى فى هذا المسجد بعض الصلوات المتقطعة طوال العام والمتصلة-نوعًا ما- فى رمضان، ولم يكن الفجر من بينها على كل حال، كنت أصلى ولكنى لم أتصل، كنت أصلى بجسد حاضر وقلب غافل، مر وقت طويل على استشعارى للصلاة، على إحساسى بفرحة الإقبال على الله، كانت كلمات الأذان تلامس قلبى مرة أخرى بعد أن غفل، كنت أعلم أننى أبتعد عن الطريق، كنت أشعر بحيدى عن السير.

كنت أشعر وكأن هناك حجابًا وسدًا بنيته بينى وبين الرجوع إلى الله على الرغم من يقينى التام أن الله لن يردنى أبدًا مهما ابتعدت فقط عندما أُقبل عليه.

من أعجب الأشياء أن يستشعر أحدٌ حلاوة الأنس بالله ثم لا يهرب من وحشة البعد عنه.

وقفت فى الصف الأخير، يلامس كتفى كتف من بجوارى، وتتصاف أقدامنا معًا، كان صوت هذا الإمام مألوفًا على قلبى، شفافًا تحلق معه روحى بعيدًا.

إنه ليصعب علينا أن نخشع فى الصلاة، فكيف لهذا الإمام أن يجبرك على الخشوع، كيف له أن يجعلك تشعر بكل همسة وحركة فى الصلاة، من تكبيرة الإحرام إلى التسليم، كيف يتحرك معه قلبك قبل جسدك؟!

بعد أن انتهى الإمام من الصلاة لم أتحرك من مكانى، جلست أراقب المسجد حولى، كان المسجد مفروشًا بالسجاد الأحمر، كان آخر عهدى بهذا المسجد كان السجاد أخضر، كما أتذكر، وجدت نفرًا من المصليين قد جلسوا إلى عمود فى حلقة يفتحون المصاحف ويتناوبون فى التسميع، أسفل أحد الشبابيك وجدت الإمام قد جلس وبيده مصحف صغير، بدأ فى ترتيل بعض الآيات بصوت يقرب للهمس، وكان الخشوع يملأ وجهه والسكينة تملؤه، مما حملنى على الإقبال عليه، وقفت أُراقبه وعيناى لم تجف منهما الدموع بعد، وقلبى ما زال يرتجف، وعلى الرغم من كونى سمعت القرآن سابقًا من قراء آخرين، وقرأته أحيانًا أخرى، إلا أن وقع هذه الآيات منه على قلبى كان غريب، شعرت بها تلمس شغاف قلبى،"أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ"، كيف لى أن أسمى نفسى حافظًا لكتاب الله وأنا لم أحفظ نفسى به عن الفتن، ولم أجعله حصنًا لى من الشيطان، كيف لقلبى ألا يكون حاضرًا معى فى كل وقت؟!

أشار إلىّ بيده أن أجلس، دقائق ورفع رأسه نحوى مُشجعًا على الكلام، أو هكذا حسبت نظرته لأنى كنت بحاجة إلى الكلام.

-"السلام عليكم".

-نظر إلىّ الشيخ ورد بابتسامة:"وعليكم السلام بُنى".

لم أستطع أن أتماسك وسارت الدموع تسيل على وجهى بلا شعور، وبدأت أقص عليه ما حدث معى اليوم، وكيف أن الله نبهنى من غفلتى، وكيف أن قلبى استوحش فجأة من المعاصى.

رد الشيخ والابتسامة لم تفارق وجهه:"اعلم بُنى أن الله مُطلع على قلبك ويعلم صدق إقبالك عليه ويعلم ضعفك، واعلم أنه ما أبعدك عن الذنوب إلا لحبه لك، أما تعلم إنك إذا ما ذهبت إلى الله وأقبلت عليه -بذنوبك- فإنه سبحانه سيقبلك إن وجد صدقك؟ وليس هذا فقط، لكن سبحانه أيضًا سيسهل عليك تركها والبعد عنها، يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا".

بدأت أمسح دموعى بطرف كمى وأقول:"أخجل من الله"، أخفيت وجهى بين كفىّ وأخذت فى البكاء،"أخشى الموت وأنا على غير الطريق".

ابتسم لى الشيخ وأمسك برأسى بين يديه بلطف قائلًا:"يا ولدى، إن كان الله لن يقبلك لما ألهمك التوبة، يا ولدى، كل ابن آدم خطاء، كلنا،

وقد خلقنا الله وهو يعلم أننا سوف نُخطئ، أليس الله بقادر على قبض روحك وأنت على الخطأ؟ لماذا أعطاك الفرصة؟ لأنه يُحبك، لأنه يريدك أن تعود إليه، يريدك أن تعتمد عليه فى مواجهة الدنيا، تُب متى سنحت لك الفرصة، أكثِر من التوبة، أمللت من تكرار التوبة ولم تمل من تكرار الذنب؟! يا فتى، إن الله لا يمل حتى تمل، فلا تمل ولا تتأخر فى السير فتضل، تقرب إلى الله بقلبك يُقربك، اصدق الله يصدقك، علم قلبك الصبر فالطريق طويل، ولا تعوده أن يمل كلما تعثر، بل علمه أن يقف بصلابة أكثر، كلما تعثر قام بإصرار أعظم، كيف تبتعد عن ربٍ إذا أتيته تمشى أتاك هرولة! لا تعطى للشيطان مجالًا لمحاربتك، استعن بالله عليه، أنت أقوى بالله منه، إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً».

أخذ الشيخ ينصحنى ويحدثنى كيف أن الله لا يرد قلبًا أتاه تائبًا، وكيف أن الله ينتظر المذنب حتى يتوب، ونصحنى ألا أيأس ما دمت أتنفس، فالباب مفتوح، علىّ فقط الإسراع، والقرع.

معظم ما يقوله الشيخ ليس غريبًا على مسامعى، ولكن كان له وقع خاص، كان له رونق خاص، انسابت الكلمات إلى صدرى، بل إلى قلبى بشكل خاص، كانسياب الضوء فى الظلمات.

كنت أشعر أن الضوء يتسلل تدريجيًا كما يتسلل ضوء الشمس نهارًا

وهى آخذة فى السطوع بعد ظلمات الليل.

اعتذرت من الشيخ وغادرت بعد أن تعاهدنا على تجديد اللقاء كلما احتجت إليه، ومداومة الصلاة فى المسجد.

غادرت المسجد وقلبى يرفرف، دخلت المنزل ومنه إلى غرفتى، استلقيت على السرير وأخذت أفكر فى تدبير الله وحكمته، لو لم أكن قد ذهبت إلى الحفلة الموسيقية، لما كنت قد دخلت إلى المسجد واستمعت إلى كلام الشيخ، ليست كل البدايات تعطى انطباعًا صحيحًا عن النهاية، رفعت بيدى كتيب صغير أمام عينى كان قد أعطانى إياه أحد المارين بى وأنا أجلس مع الشيخ أسفل الشباك، لونه برتقالى مكتوب عليه بخط عريض(حصن المسلم)، وبخط أصغر"الأذكار"، قلبته بين يدى، قرأت فيه بشكل عشوائى عدة أدعية، ثم قمت فاغتسلت وصليت ركعتين لله، سجدت وأنا أدعو الله أن يطهر قلبى وأن يردنى إلى دينه، ويحفظنى من ظلمة الفتن، أن يكون لى سندًا من رياح الفتن وتلاعب الدنيا.

أنهيت صلاتى، وقعت عيناى على المكتبة، على المصحف تحديدًا من بين الكتب، يا الله متى آخر مرة قرأت شيئًا من القرآن، كم مرة ختمته منذ انتهى شهر رمضان! انتفض قلبى مع صدمة الإجابة! اقترب رمضان الثانى ولم أتم ختم المصحف منذ رمضان السابق، يا الله! كنت

أقرأ من القرآن كلما أردت أن أُريح قلبى، كنت أقرأ كلما استشعرت بوحشة الدنيا، كنت أقرأ كل فترة حتى لا يكون القرآن حجة علىّ، كنت أقرأ حتى لا أكون ممن هجر القرآن، ولكنى لم أختمه ولو مرة! كنت أقرأ سورة وأحيانًا صفحة، كانت تخطر ببالى آيه فأفتح المصحف وأقرأها، وأبحث عن تفسيرها، ولكنى مقصر، كنت قد ختمت القرآن حفظًا، ولذلك فمن السهل علىّ أن أراجعه، لكنى لم أفكر فى ذلك قبل الآن، قمت من مكانى وأخذت المصحف، وعدت مرة أخرى إلى سجادة الصلاة حيث كنت، مسحت التراب عن غلافه. أغمضت عينى وأنا أقول:"يا رب قد فسد قلبى منى، فآتنى قلبًا جديدًا، يعرفك، ويوحدك، ويحبك، ويخضع لك"، ونويت أن أعمل لذلك.

أخذت على نفسى عهدًا بأن أتم ختمه قبل دخول شهر رمضان.

فتحت المصحف وبدأت أقرأ فى سورة الروم:"فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ".(٤٣)

قرأت الآية ولم أنظر إلى اسم السورة، فكرت فى أن أختبر نفسى وأحاول أن أعرف فى أى سورة هذه الآية دون النظر إلى المصحف ولكن...

لعظمة القرآن إنك إذا تركته تركك، كأنه فرس، إن غفلت عنه أو تراخت يديك عن اللجام انطلق عنك!

حرصت على لقائى مع الشيخ كما تواعدنا كلما لزم الأمر، شعرت بالحياة، كنت نصف غافيًا، وأنا الآن حى.

كان الشيخ قد أخبرنى أنى لو التزمت بإقامة عبادة من العبادات لمدة واحد وعشرين يومًا فإنها ستكون من عاداتى، وأنه لو صدقت العزم عليها لن أستطيع مفارقتها، وبالفعل التزمت بقيام الليل بعد أن كنت أسوق نفسى إليه بكسل، وشعرت وقتها أنى بدأت أستعيد راحة قلبى وحُسن علاقتى بالله، لم تكن الفكرة فى الواحد وعشرين يومًا، أظن أن زمام الأمر كان الصبر، كان الشيخ يُصبرنّى بأن حدد لى فترة زمنية معينة.

أعادت إلىّ مرافقتى للشيخ أنسى بالله، أعادت إلىّ قلبى، وشعرت منذ ذلك الوقت أنى بدأت رحلتى الحقيقية، إن مُربيي وشيخى قد وضع قدمى على بداية الطريق، الطريق المنشود، الذى من مات عليه فقد وصل.

عدت إلى الحياة مرة أخرى بعد أن اخترت أن أنعزل لأربيها وأرتب ما فيها، عدت بروح جديدة وقلب شِبه سليم.

عدت لحياتى كما كانت، ولكن بعد أن أعدت غربلتها استخلصت من أصدقائى القدامى معاذ، والذى اخترته من بينهم ليكون لى عونًا قبل أن أكون، لما وجدت فى نفسى من احتياج للمساعدة ووجدت فيه بذرة

إيمان تحتاج فقط أن يرويها له أحد حتى تُثمر روحه ويرقى فِكره، لم أكن لأبخل عليه أبدًا، ولم أكن أستطيع المسير وحدى.

أريد أن يظل أثرى فى قلبه إلى أن يوارينى الثرى، وشعرت أن من علامات صدق حبى له أن أجعله يتذوق حلاوة القرب من الله، وأنه من واجبى عليه أن أحرص على أن يشاركنى الطريق القويم، كما كنا سويًا فى الأعوج منه.

أصبحت لى صُحبة فى المسجد لكثرة ترددى عليه، كانت اللحى على وجوههم كفيلة بإقناعى بأنها سمت الملتزمين بدون أى تفصيل فقهى، أو تحيز لفئة معينة أو حتى نظرة سطحية للأمور، لم أهتم بالبحث أو الدخول فى أى جدال حول فرضيتها أو لا، تركتها تنبت فى وجهى كما أذن الله لها بالفطرة لحكمة لا يعلمها غيره، وأظنها أسمى من كونها مجرد زينة الرجال، كان المسجد عالمى بكل ما تحمله الكلمة من معنى، بل إنى كنت أستشعر معظم الوقت أن المسجد عالمى الأكبر، وليس الأصغر، كنا ننتظر الصلاة بعد الصلاة لنهرول إليه، نجلس بعد الصلاة للاستماع إلى درس أو لمراجعة القرآن، كنا نتناوب على الأذان بين الحين والآخر.

كنت أخرج أنا وشيخى عمر -صاحب اللحية البيضاء- الأحب إلى

قلبى، إمام المسجد، ومربيي الأول، نتمشى سويًا فى ساحة المسجد الفسيحه، نتحدث فى كل شىء، يحكى وأحكى، ينصحنى، وأستمع إليه، ثم نعبر الساحة إلى المسجد، نودع الجالسين ثم نمشى فى الممر أمامنا متجهين كلا إلى بيته، أوصله إلى أسفل بيته وأكمل السير نحو بيتى وأنا أردد آخر ما تحدثنا فيه على نفسى مرة أخرى.

اشتد المرض على والد معاذ بشكل مفاجئ، حتى أن الطبيب قد نصحهم بالبحث عن علاج خارج البلاد، وبالفعل لم يمر أسبوعان حتى أتم والده الإجراءات اللازمة.

قضيت ليلة سفر معاذ معه حتى أودعه، سهرنا الليل نتحاور فيما مضى وفيما سيأتى حتى حان موعد أذان الفجر.

بعد أن انتهيت الصلاة، أقبلت عليه وهمست له:"توجه إلى الشيخ واطلب منه النصيحة، فالله وحده يعلم ما يخبئه لك القدر، ولعل كلمة منه تثبت قلبك فلا يميل بعدها أبدًا"، وربت على كتفه وانصرفت.

توجه معاذ إلى الشيخ وقال له:"انصحنى".

كنت فى ساحة المسجد أنتظر معاذ حتى أودعه، كنت أنظر إليه مع الشيخ بين الفينة والأخرى، وتتردد فى رأسى الكلمات:"آهِ لو تدرى بحزنى والتياعى، حين قالوا أشرقت شمس الوداع،

فلنعاهد ربنا عهدًا وثيقًا، أن نلبيّ إن دعا داعى اللقاء

يا أخى اليوم سنمضى وعزائى، أن شمس البين تُطوى باللقاء".

خرج معاذ من المسجد حاملًا حقيبته، فما كان منى إلا البكاء كالأطفال، واحتضانه، لم يبعدنى عنه إلا صوت رنين الهاتف.

-"السلام عليكم".

-"حاضر، سلام".

معاذ:"كان هذا أبى يُخبرنى أن علىّ الإسراع حتى لا تفوتنا الطائرة".

على:"سوف آتى معك إلى المطار، بإذن الله سيتم والدك العلاج بالشفاء وفى أسرع وقت".

فى الطريق إلى المطار ضغطت على زر المسجل فإذا بأسامة السلمان يسأل:

"أتقبلنى بما أشعر؟

بأخطائى وما يصدر؟

وما آتيك بالكلمات، عذرًا عندما أعثر،

أتقبلنى بما فىّ؟

بدمعى فائض القطرات

ضعفى عندما أخسر".

زفر والد معاذ بضيق ثم هز رأسه اعتراضًا على ما نسمع".

فابتسمت له فى المرآة، وأخبرته أنها بديلًا عن احتفالات الوداع، سألنى عن شىء أكثر مرحًا وأن أغير ما نستمع إليه، فأغلق معاذ المسجل ضاحكًا وهو ينظر إلى والده قائلًا:"لن تجد ما يسُرك، هذا أفضلهم".

وصلنا المطار فحملت مع معاذ الحقائب واحتضنته، همست قائلًا بأسى:"سوف أكون هنا كما أنا، منتظرك!"

دخل معاذ صالة الانتظار فغادرت عائدًا إلى السيارة.

كان علىّ أن أحمل نفسى على مواصلة السير، وأحمل أعباء قلبى، وأخفى جرحى بين أضلعى، حتى وإن كنت وحدى.

ولم يكن أثقل علىّ من أن أكون وحدى، ولأننى كنت قد اكتفيت بمعاذ أنيسًا وعونًا لى فى طريقى.

ضغطت على تشغيل المسجل فتردد كلمات النشيد فى أذنى وكأنها مُنشدة لهذا الموقف تحديدًا:

"غرباء، غرباء، غرباء، غرباء

غرباء ولغير الله لا نحنى الجباه

غرباء وارتضيناها شعارًا للحياة

إن تسل عنا فإنا لا نبالى بالطغاة

نحن جند الله دومًا دربنا درب الأُباة".

دمعت عيناى وأنا أردد مع النشيد، ثم تحولت الدموع الصماء إلى بكاء، ثم ابتسمت عندما تذكرت موقف الرسول منذ بداية دعوته وحيدًا حتى أصبح سيدًا فى قومه، رددت كأنما أهدئ نفسى: "فطوبى للغرباء"، كنت أطوى الأسفلت مسرعًا وكأنى أسابق نفسى التى شعرت بالخوف من الانحراف عن الطريق بغياب أحد أهم الأعمدة التى تستند عليها حياتى.

-

فى طريقى إلى البيت أذن للعشاء، فأوقفت السيارة وغادرت إلى المسجد، وبعد الصلاة انشغلت قليلًا مع أحد أصدقائى فى المسجد، كان يردد علىّ بعض الآيات التى حفظها قبل أن يتلوها على الشيخ، خرجت إلى ساحة المسجد بعد أن تأخرت قليلًا عن معادى مع الشيخ، فوجدته يتكلم مع امرأة أظنها زوجته، لأنه كان على مقربة منها يحدثها، وكانت تنتظرهما فتاة: "وكأن نور البدر سنا وجهها"، ترتدى خمارًا بلون البحر والسماء معًا، أو لا أدرى أظنه مجرد لون أزرق، ولكن هذا العالم الأزرق قد تملّكنى، ولم أر حولها أحد، ولم أتذكر حتى أين أنا، وأنا

أطالعها من بعيد حدث لقلبي شيء، شيء تحرك داخلي لأول مرة، لم أكن خبرته من قبل، جَمعت شتات قلبي الذي أظنه قد تبعثر أمامها وغادرت، لم أكن أستطيع أن أنظر في عيني الشيخ مباشرة بعد أن نظرت إليها، خصوصًا وإن اكتشفت بعد ذلك إنها إحدى محارمه.

تشاغلت عنها فيما أتي وهوّنت على قلبي بأني لن أراها مجددًا، وإن كانت قد أحدثت في قلبي شيء فلفراغه ولطبيعة خلقتي البشرية، وربما غيرها قد تُحدث ما هو أعظم من ذلك، تعاملت مع الأمر وكأنه كان عقابًا من الله لمّا أطلقت بصري، الأمر بمثابة إعلان أن قلبي لم يكن ملآن بالخير كفايةً، فمال أول ما مال إلى شر، ولكني لا أظنها شرًا ابدًا، «أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى، فصادف قلبًا خاليًا فتمكنّا»، ورغم ما حدث لقلبي قلت إن الأمر سينقضي مع مرور الوقت، ثم رأيتها ثانيةً كانت الأمور واضحة، وخزات قلبي تشتد، وهذا الشعور الغريب الذي لم أشعر به من قبل، والأغرب أني أشعر به مرتبطًا بـفتاة، فتاة لم أسمع منها حرفًا أو أرى منها نظرة أو أحدثها حديثًا، كنت أحاول أن أغالب نفسي أمام نفسي لكنني كنت أجدها في نفسي.

«عضو صغير يسكن ضلوعك قد يقتلك يومًا ما».

في بداية رمضان كنت أسير في الممر الضيق من البيت إلى المسجد،

فمررت بالشيخ كعادتنا، فنزل وكانت معه، اختلج قلبى وكدت أهرب، كنت أخشى على نفسى، خاصة وأن هذا لم يحدث معى قبلًا، لا أعرف ما قصة قلبى معها وحدها دون غيرها، لم تسبقها من تُحدث هذه الضجة فى قلبى وكيانى كما فعلت هى، لم أتبع النظرة بأخرى، فقط سلّمت على الشيخ ثم سبقتهما فى السير، كنت أشعر باضطراب خفيف سرعان ما سيطرت عليه وأنا أتجه إلى باب المسجد، كنت أستعد للأذان طلبنى الشيخ وجعل غيرى ينوب عنى، قال:"هى ابنتى"، حاولت أن أوضح شيئًا، أنفى شيئًا، لم تخرج الكلمات من بين شفتى، وإذ به يقول:"لا أقول لشىء غير أنى أخشى اختلاط الأمر عليك، النبى كان إذا سار مع إحدى زوجاته أخبر من يراه أنها إحداهن"، وابتسم. صلّينا، وتأخرت عنه فى الخروج لعلمى أنها ستنتظره، فتشاغلت إلى أن تأكدت من مغادرته فغادرت، ولم تغادرنى.

رأيتها مرة أخرى فى النصف الآخر من رمضان، كنت وقتها لا أجلس فارغًا حتى لا أفكر فيها، وإن كنت سلّمت بوخزات قلبى كلما تحدث الشيخ عنها أمامى أو حتى ذكر شيئًا من أحوال المحبين، كنا قد صلينا التراويح ثم تناوبت مع الشيخ فى الجلوس أسفل الشباك

-الذى تكلمنا عنده فى أول أمر اقترانى بالشيخ- كنت أهمّ بالنوم فإذا

بثلاث طرقات خفيفات على حافة الشباك، فاعتدلت لأنادى الشيخ فلم أجده حولى، فتحت ولم أكن بكامل انتباهى، حتى فتحت، فتنبهت كل حواسى، حتى أن قلبى قد تنبه،كانت قريبة بخمارها الأسود وعينيها الواسعتين، كانت قريبة لدرجة أنها من شدة فزعها رفعت خِمارها على وجهها، ومن شدة فزعى وتنبهى ابتسمت، ثم أدركت نفسى وأطرقت ببصرى وأخبرتها أنى أنوب عن والدها، أخذت منها طعامًا كان لأبيها، ولم أرفع وجهى إليها مجددًا، غير أنها عندما غادرت راقبتها حتى دخلت بنايتهم، عندما أدرت وجهى لأضع الطعام من يدى وأعاود غلق الشباك كان والدها هناك يراقبنى مُبتسمًا، تمنيت وقتها أن أكون شيئًا غير مرئى، أعطيته الطعام بعين هاربة ثم أغلقت الشباك وذهبت للصلاة.

ظللت أهرب من مواجهة شيخى ليلتين، ولما عزمت على الكلام والاعتذار ذات مرة وأنا أسير معه فى ساحة المسجد كدت أن أحكى له عن الأمر كما كنت أحكى له دومًا عن أمورى، ولكنى وجدت منه عدم مبالاة فشعرت أنى كنت مخطئًا فى تحجيم الأمر، وجدت الشيخ وكأنه لم ير شيئًا، لم يتحدث فيما حدث ولم يُعره اهتمامًا، فآثرت ألا أتحدث فى الأمر وأن أتجنب حتى الحديث فيه مع نفسى.

رأيتها بعد شهر تقريبًا وأنا فى الممر من المسجد لبيتى، لم أستطع إلا أن أحدثها، لا أحلل فِعلتى ولكنى لم أكن أعلم ما يحدث ولا ماذا يجب على أن أفعل، وماذا كان علىّ أن أفعل وأنا أرى ابتسامتها التى رأيت غير أن أتحدث إليها!

لم يكن هزلًا، أو خوضًا فى شىء مما يحرمه الله، لم أكن لأفعل، ولم أكن لأرتضى لها ذلك أبدًا، كانت تحمل كتابًا، غفلت عنه، أعطيتها إياه، وفقط. وقفت مبتسمًا أراقبها وهى تسير مبتعده نحو بيتهم، ثم غادرت، وكالعادة لم تغادرنى.

"ما زلت أسمع صوتها فى داخلى، ما زلت أصدق فى الدعاء لأجلها".

لم تنقطع الاتصالات بينى وبين ومعاذ برغم المسافه بيننا، حتى بعد مرور عام على السفر، كان كلانا مشدود العضد بالآخر، صارع والد معاذ المرض حتى فتك به وبقلوب من حوله، لم يكن معاذ مهيئًا لهذا الفقد أبدًا، وبطبيعته العاطفية التى أعرفها جيدًا لم يكن ليستطيع أو فلنقل قادرًا على مواجهة الأمر وحده، كان لا بد لى من السفر، كان لا بد له أن يشعر بجوارى له، لا أن يسمعه فقط.

فى الصباح التالى من أمر الكتاب، كنت أستعد للسفر فلاقانى الشيخ فى الساحة وتحدثنا كالعادة، ثم قبل أن أغادر طلب منى أن أسأل معاذ

عن رأيه فى «عائشة»، لأن زوجته تقول إن والدة معاذ قد طلبت تزويجه إحدى بناته، ولما استعلمت عن الأمر قال:«عائشة»، التى تراها معى».
بوغت بطلبه هذا، جمد وجهى للحظة تداركت بعدها الأمر مسرعًا، لا أعلم هل شعر بالغصة فى صدرى وأنا أحتضنه أو بالرعشة فى يدى وأنا أصافحه أم لا، ولكنى أتمنى ألا يكون رأى اضطراب عينى، سلّمت وغادرت وعاهدت نفسى أن تغادرنى «عائشة» قبل أن أصل بالخبر إلى معاذ. كان لا بد للأمر ألا يستمر أصلاً، لأنى لست فقط لم أحفظ أمان نفسى، بل أيضًا لم أحفظ عهدى مع الله وسلمت نفسى لأول فتنة، وكنت أخشى أن يعلم الشيخ بشىء أو يصله شعورى نحو ابنته، ونسيت أن الله مطلع على قلبى، فابتلانى الله فيها لما عصيته بها.
لا أعلم لمّا ظللت أردد وأنا أسير من المسجد فى الممر:
«لم تبق إلا ليلة أحيا بها، وأحس أن ظلامها أكفانى
ستمر يا أبتاه لست أشك، فى هذا وتحمل بعدها جثمانى».
لا أظن أن الرفاعى عندما كتبها كان يعلم أنها ستحضرنى فى موقف كهذا، أشعر أنه لو علم بالأمر فسيتبرأ منها.
بعد مرور أسبوع من سفرى كان لا بد لى أن أخبر معاذ برسالة الشيخ عمر إليه، كان لا بد أن أفى بعهدى مع الشيخ، حتى وإن كنت رأيت فى

عينيه بعض التردد وهو يسألنى إخبار معاذ عن رغبة أم "عائشة" فى تلبية دعوة والدة معاذ فى خطبته لإحدى بنتيهما، حتى وإن أصابتنى غصة عندما سمعت طلبه، حتى وإن دمعت عيناى وأنا أعده، حتى ولو لم أنّم ليلتها من التفكير.

نبّهنى معاذ من شرودى: "هل هذا هو الشوق الذى كنت تخبرنى عنه كلما حدثتنى! ما بك يا صديق؟ لِم تبدو شاردًا هكذا كما لم أرك من قبل؟" ربت على ركبة معاذ الجالس بجوارى مُطمئنًا: "ليس هناك شىء، أظنه أثر جانبى للسفر، لا تُشغل بالك"، شغلت نفسى عن النظر إلى عينىّ معاذ قائلًا بصوت مهزوز: "الشيخ عمر أراد منى أن أسألك عن "عائشة"، آلمنى قلبى، "أقصد عن رأيك فيها، يعنى... يقول الشيخ إن زوجته أخبرته أن والدتك تريد أن تخطب "عائشة" والشيخ يريد أن يعرف رأيك أولًا قبل أن يتم أى شىء، يعنى هل هذا طلبك أم أن والدتك هى من أرغمتك، "عائشة" لم تُخبّر بعد فلن يكون عليك حرج فى أى شىء"، كانت عيناى مصوبتين على معاذ تخترقانه، أريد أن أخترق قلبه، عقله، أريد أن أعرف إجابته، أريد أن أسمعها منه، أريد أن أسمعه وهو ينفى ذلك، أردت أن أسمع منه أنه لا يفكر فيها، أنه غنى عنها، وأن أمرها لا يُهمه.

بدا صوت معاذ بعيدًا، بدا وكأنه بمكان آخر، بعالم آخر، كنت فزعًا من كلام معاذ!

معاذ كان يقول إن والدته حدثته فى الأمر قبل أن يسافر لمرض أبيه! كان يقول إنه لولا سفرهم المفاجىء وموت أبيه لكان خطبها، قال إنه منذ ذلك الوقت وهو مشغول البال بها، وكأن سفره كان مهلة للتفكير! قال إنه لم يتحدث إليها ولكنه كان يراقبها، قال إنه ما من أنثى غيرها فتنت قلبه كما فعلت هىّ!

قالها صريحة! قال إنه يُحبها ويتمنى لو يُكملا حياتهما سويًا.

كنت شاردًا مذهولًا، كنت أُمنى نفسه بأن أم معاذ من أجبرته، كنت أصبر حالى بانشغال معاذ بموت والده!

كان معاذ يتحدث وتلمع عيناه مع كل جملة، تبتسم شفتاه مع كل كلمة، وأنا يعتصر قلبى مع كل جملة يلفظ بها!

كنت على وشك المصارحة، على وشك المنازعة على وشك البكاء، أو على الأقل المناقشة، ولكنى كتمت، وابتسمت له أدارى اضطرابى! أظن أنه لا يصح إلا الصحيح، معاذ أحبها فطلبها للزواج، ولم يعص الله باتباع طرق معوجة معها، وهذا هو الصحيح والمستقيم الذى لا اختلاف على نهايته الحتمية، لن أجبرها على شىء، لن أجرح صديق عمرى، وشيخى

لم يُلمح على احتمال رفضها، ومن يدرى! لعلها تحبه مثلما يُحبها، لن أحزن سأكون سعيدًا، إن كنت حقًا أكنّ لها احترامًا أو لصديقى الحب كما أدعى فسأكون أسعد الناس بتلك الزيجة وبتتويج ذلك الحب الطاهر، احتضنت معاذ لأخفى لمعة عينى وأسندت رأسى على كتفه، ربت على ظهره ثم اعتدلت.

نظر معاذ إلىّ مبتمسًا وأخذ يردد: "أخى فى فؤادى وفى مسمعى، وفى خاطرى أنت والأضلع".

وسكَت، فلم أكمل، فأكمل هو:

"أخى فى حناياك يجرى هواى، وروحك فى الكون تسرى معى".

فتدخلت وأنا أبتسم:

"أخى إن بسمت فعن مبسمى، وإن أنت نُحت فمن أدمعى

أخى إن ترآى لعينى الصباح، تبينت نورك فى المطلع".

رددنا معًا:

"أخى أنا أنت فآمالنا، وآلامنا فِضن من منبع

أخى نغم أنت يحلو به، فمى ويَهَس له مسمعى

أخى خذ مكانك بين النجوم وقف أنت والشمس فى موضع".

ابتسمت لمعاذ، ثم استأذنته للنوم!

"ولربما ابتسم الوقور من الأذى، وفؤاده من حرّهِ يتأوهُ"- "على" بن أبى طالب.

اتفقنا على موعد رحلة العودة وتحدثنا مع الشيخ واتفقنا معه على أننا سنذهب سويًا لبيته بعد عودتنا، لأطلب منه تزويج "عائشة" التى لم يتحرك قلبى إلا نحوها، لصديقى الوحيد معاذ، هكذا بكل بساطة!

عائشة

لم أكن وقتها أصدق نفسى عندما أخبرنى أبى أن عليًا آتٍ إلى بيتنا ومعه معاذ لِخطبتى! أمرٌ لا يصدق، استجاب الله لدعواتى، سيأتينى "على" ستُقر عينى برؤيته، أخيرًا سأُصرح بحبى له! لن أعترض على أى شىء، لن أطلب منه أزيد مما فى وسعه، يكفينى أننى سأكون معه، يكفينى أن الله استجاب لدعواتى.

كنت أشعر أنى عندما أحرقت شعلة حبه فى قلبى لله، أوقد الله حبى فى قلبه، كنت أعلم، وإلا فلماذا سيخطبنى، والخطبه تكون أكبر دليلًا لإثبات المشاعر؟

سأطلب من أبى أن نعجل بالعقد، لا أظن أننا سنحتاج الخطبة حتى نتعرف، أنا أظن أن روحينا قد تعرفا قبلًا، حتى قبل هذه الحياة.

كنت دائمًا أراه مصاحبًا لوالدى، إما أثناء ذهابهما للمسجد أو رجوعهما منه، قال لى أبى ذات مرة أنه يسكن على مقربة منا، كان خلوقًا قلبهُ معلق بالمسجد، فتننى بدينه وخلقه!

لم أُحبه إلا لتعلقه بالله، أحببت حُبه لله، أحببت إيمانه بالله، أحببته بأفضل أنواع الحب وأجلها، فى الله ولله، أحببته لأنى كنت أشعر أنه ممن يحبهم الله.

لم أحدثه إلا لِمامًا،

أول مرة كانت وقت السَحر فى الليلة الخامسة والعشرين من رمضان، كانت عادتى أنى أُحضر لأبى السحور كل ليلة، كنت أحمل الطعام وأمشى هونًا حتى لا أُسقطه، نقرت على شباك من شبابيك المسجد اعتاد والدى أن يجلس تحته، نقرت نقراتى الثلاثة المعتادة ووقفت أنتظر أن يفتح لى والدى، فأُعطيه ما أحضرت له ثم أنصرف كما أفعل كل ليلة، ولكننى لم أكن أعلم أن هذه الليلة ستختلف.

كان وقتذاك كما علِمت فيما بعد أنهم كانوا يتناوبون فى تنظيف المسجد وكان أبى مشرفًا عليهم تلك الليلة، فترك ل "على" مكانه حتى يستريح قليلًا قبل التهجد، ثم ماذا؟

فتح "على" الشباك، ولم أكن أدرى أنه يفتح باب الفتنة معهُ، كنت قريبة، لم تكن المرة الأولى التى نرى بعضنا فيها، ولكنها المرة الأولى التى يُطلق بصره فيها.

"وا رحمة بالعاشقين تكلفوا ستر المحبة والهوى فضاحُ".

حوَّلت بصرى عنه عندما رأيته يُطالعنى بتلك الابتسامة، وسألته عن والدى، أجاب بأنه مُشرف مناوب لليلة وأن بإمكانة المساعدة!

تركت الخمار ينزلق عن وجهى بعد أن رفعته إثر الفزع ورفعت بكلتا يدى الطعام، تناوله منى ثم سرت مُسرعة مبتعدة عنه، عائدة إلى البيت بقلب غير الذى خرجت به.

ولكننى عاهدت نفسى ألا أضعه أو أضع نفسى فى فتنة كتلك مرةً أخرى، كنت أشغل نفسى بأى شىء كلما ذكره والدى أمامى، لم أعد أصلى فى المسجد مع أبى كما كانت عادتى، وكنت أبرر له إذا تساءل بأن صلاة المرأة فى بيتها أفضل.

"تحوّل بصرها أو تخفضه وهى من قلبها تنظر" - الرافعى.

تحدث معى بعد هذه الواقعة مرة ثانية، كانت يوم ١٦ شوال، كنت عائدة من أحد دروسى أرتدى عباءة سوداء وخمار رمادى اللون وأحمل حقيبة ظهر سوداء وبها زهور صغيرة ملّونة، بيد كنت أحمل ألواح كنت قد أشتريتها لأرسم فيها، وبيدى الأخرى كنت أحتضن كتاب وحى القلم لكاتبى المفضل الرافعى، كان الكتاب ثقيلًا والألواح تعركل حركتى بينما هاتفى فى الحقيبة يرّن، أسندت الكتاب بقدمى إلى حائط، ثم وضعت عليه الألواح سحبت يد الحقيبه اليمنى وأدرتها بحركة سريعة أمامى

وأخرجت الهاتف عاودت الاتصال بأمى، ثم وضعت الهاتف بين وجهى وكتفى الأيسر، ارتديت الحقيبة مرة أخرى وتناولت الكتاب ثم الألواح وأنا أتحدث.

كنت أسير ببطء حتى أنهيت مع أمى المكالمة، أسندت اللوحة على قدمى ووقفت لثوانٍ على قدم ونصف، وضعت الهاتف فى جيب عباءتى ثم اعتدلت فى وقفتى وأكملت سيرى.

وضعت الكتاب على حافة طاولة تحوى حلوى كانت بجوار بيتنا، أحضرت لـمريم الحلوى كما طلبت أُمى، ثم أكملت سيرى بهدوء نحو البيت، على عكس «على» الذى أسرع نحوى حاملًا الكتاب بعد أن ابتسم ابتسامته الخجولة التى ابتسمها قبلًا.

«تذوب الفواجع، تفنى المواجع، يبتسم الجرح وهو يطيب فوا عجبًا! كل هذا لأنى أفكر فيك، فكيف إذا ما التقينا».

استدرت بعد أن وصلنى صوته، لم يكن ينادى ولكنه ظل يركض حتى وصل لمسافة أستطيع سماعه منها قائلًا بملامه يغلفها مرح: «كيف لكِ أن تُفرطين بكتاب كهذا؟!»

أجفلنى صوت أعرفه لكننى لم أسمعه موجهًا لى قبلًا، التفتت إلى الصوت، كان خلفى، نصف جاد، نصف منبسط، وابتسمت بتلقائية

لأنى كنت أُفكر فيه، كيف لى أن أتحدث مع أحد يقرأ أفكارى؟ تذكرت الكتاب الذى كنت أحتضنه بين يدى منذ قليل، التفتت إليه كان يحمل الكتاب بيده والأخرى خلف ظهره ووجهه منخفض لأسفل كأنه فارس يستعد للمبارزة، لفتت نظرى سبحته التى كانت تلتف حول يده اليمنى، كانت خضراء لم أرفع عينى عن يده حتى سمعته يقول:"هذه السبحه هدية من مدينة رسول الله"، رفعت رأسى قليلًا فتلاقت أعيننا ابتسمت فى خجل، لقد لاحظ!

مددت يدى لأخذ الكتاب منه،

قبض عليه بقوة ثم أردف:"لا تفرطى فى أى كتاب أبدًا، خصوصًا لو للرافعى لأنه لو وقع بيدى مرة أخرى لن أُعيده"، وتركه بيدى، بانت على شفتيه ابتسامة لكن عينيه ظلتا إلى الأرض، ودار مبتعدًا.

"فلا هو بالقرب الذى يُريح الفؤاد ولا هو بالبعد الذى يقطع حبائل الأمل".

وقفت لوهله أنظر إليه وهو يسير مبتعدًا عنى غير مسيطرة على أعصابى، فعاد برأسه للخلف يطالعنى، كدت أتعثر.

هز رأسه وأشار إلىّ لأكمل الطريق، التقت نظراتنا مرة أخرى للحظة، شعرَت أنى لا أقوى على السير بسبب تخشب ساقى، لا شك أنه لاحظ

توترى، عدلت وضع الحقيبة على كتفى وكأنى أحتمى بها، وسرت بخطوات مسرعة نحو باب البيت، ظللت مُبتسمه طوال اليوم أحتضن الكتاب بين الحين والآخر.

عائشة

علِمت من أبى بوفاة والد صديق "على" المقرب، حزنت لأجله كثيرًا، حتمًا وفاته قد تركت وجعًا فى قلبه! يا ليتنى أستطيع التخفيف عنه، وإخباره أن كل شىء سيكون بخير وأنى بجواره دائمًا، لكننى لم أفعل شىء غير أننى كنت أدعو بأن يخفف الله عن قلبه وأن يجعله عونًا لصاحبه، وأن يهون عليه الحزن.

بعد أسبوع من سماعى للخبر أخبرنى أبى عن موضوع الخطبة!

إذًا إما أن الحزن استطاع أن يمر على "على" مرار الكرام سريعًا، أو أنه أرادنى أن أكون بجواره حتى أخفف عنه، أو أنه يريد أن يُشغل صاحبه عن مصيبته بأن يشاركه فرحتنا، أيًا كان علىّ أن أتجهز لزيارته تلك، لم يكن "على" أول الخُطاب قدومًا إلى بيتنا ولكنه يختلف، لن تكون هذه المرة هى الأولى له لزيارة بيتنا، كنت أعلم أنه يأتى إلى بيتنا مع أبى كثيرًا، لم أكن أرى منه إلا طيفه، هذا إن رأيته، ولكن على حد عِلمى أنه كان مُلازمًا لأبى، المختلف أنه اليوم سيأتى إلىّ، سأجلس

معه فى نفس الغرفة وحتمًا سنتحدث أيضًا.
وقفتُ أمام دولاب الملابس وأنا أدندن:
"يقولون أنت كنت هنا بين المنى تترقبينى
ووحدك كنت، مثلى أنا رغم العنا تتأملينى".
لأختار من بينهم ما يناسب هذه المناسبه العظيمة، حاولت أن أتذكر لونه المفضل لأرتدى خمارًا بنفس اللون ولكنى لا أعرف، من أين لى أن أعلم شىء كهذا! ربما الأخضر أو الأسود أو ربما مثلى يحب الأزرق! لا أدرى لماذا راقت لى هذه الفكرة، اخترت عباءة لم أكن قد ارتديتها من قبل أمامه أو هكذا ظننت، وضعتها على السرير ووضعت فوقها الخمار الأزرق، وقفت أتأملهما فى شرود، هل سيحب "على" اللون الأزرق أم أن هناك لون يفضله أكثر، ربما الرمادى سيكون أجمل مع لون عينى! وفى هذه اللحظه دخلت أمى، قبلت جبينى وجلست على طرف السرير تنظر إلىّ فى سعادة ملحوظة.
-"أسعدكِ الله بُنيتى".
-قلت بابتسامة خجولة:"جزاكِ الله خيرًا يا أمى".
-"هل أنت سعيدة حبيبتى؟"
-"هربت بعينى خجلًا، أو خوفًا من أن تراه يسكنهما:"الحمد لله،

الحمد لله".

-"حسنًا سأعود لإعداد الطعام، أسرعى، اتصلت بى أم معاذ وقالت إنهم على وصول".

-"أم من؟!"

-"أم معاذ، حبيبتى".

-"ولم ستأتى أم معاذ؟!"

-"ستأتى مع ابنها! من حقها هى أيضًا أن تراكِ!"

-"أى حق هذا؟"

-"حبيبتى! هل يصح أن يخطب ابنها فتاة لم ترها إلا مرات قليلة؟ حتى وان رأتك مرارًا، هذه المرة تختلف".

وكأن دلوًا من الثلج -ليس من الماء البارد فقط- قد صُب فوق رأسى! معاذ من؟! وأم من؟! وعلى؟! هل كل هذا كان وهمًا؟! "على" لا يفكر فىّ كما أنا، "على" لا يريدنى أن أخفف عنه حزنه أو أن أكون بجواره! "على" سيأتى اليوم إلى بيتنا ليخطبنى، لغيره!

أجبت بصوت مخنوق وأنا أحبس دموعى خشية أن تشعر أمى بشىء: "حسنًا يا أمى، دقائق وأتجهز".

بمجرد أن غادرت أمى الغرفة أعطيت الإذن لدمعاتى المحبوسة بالتحرر

ولآهاتى الخرساء أن تصدّع!

لا أعلم ماذا أقول أو ماذا أفعل تركت العنان لعينى، كنت سأمتنع عن الخروج، قررت أن أخرج وبعدها أرفضه.

قُمت إلى الحمام المجاور لغرفتى توضأت ثم خرجت، أخرجت خمارى الأسود وأعدت الأزرق إلى مكانه، أخرجت عباءة لم تكن مميزة من عندى! لن يرانى "على" وحده! لذا، ما الفرق؟

بعد قليل كنتُ قد انتهيت من إعداد نفسى، طرق أبى على باب الغرفه فسمحت له بالدخول، ابتسم لى ثم قبل جبهتى وكفى، سألنى إذا كنت سعيدة أم لا؟ لمعت عيناى بدمعه،-أبى يعلم أنى لستُ سعيدة لذلك يسأل- أو هكذا أردت أن أشعر.

حركت رأسى دليل الإيجاب واحتضنته ثم أمسكت يده متجهين إلى الخارج حيث يجلس "على" وأم معاذ ومعاذ، بهذا الترتيب استقبلتهم عينى، على الرغم من أن "على" كان أبعدهم مكانًا ولكنه كان الأقرب إلى قلبى، لذلك كتمت ابتسامة كادت أن تظهر على ثغرى لما أبصرته، وغصة قلبى وقتها، نظرت إليه بنظرة كنت ألومه فيها، أو كنت أعتذر عن خيانتى له، لا أعلم من منا أخطأ، أظننى أنا من أخطأ عندما قبلت بالخروج لغيره، وعندما لم أصبر حتى يأتى أمر الله ويتحقق دعائى،

ولكنه ليس حزين؟ ربما لا أعنى له شيئًا، ربما كنت أعيش فى وهم غزلته بعقلى الباطن؟ ليس شرطًا أن أكون أنا من يبحث عنها كما كان هو من أبحث عنه، فهو لم يُصرح لأبى بشىء كهذا قبلًا، وإذا كان هناك شىء كهذا فإننا أبدًا لم نكن لنجد أنفسنا فى موقف كهذا.

نظرت إلى معاذ فإذا به يطالعنى بابتسامة حانية، واضعًا أمامه باقة ورد أظنها من نصيبى.

"والبدر يبزغ فى الظلام كأنه، وجه الحبيبة فى الخمار الأسود"- وائل أبو صلاح.

لم أحرك عينى عن عينيه أردتُ أن أقرأ ما فيهما، استغللت أن هذا حقى الشرعى، إن معاذ خاطبى ومن حقى أن أنظر إليه، حاولت أن أشغل نفسى بمعاذ وحديثه مع أبى، نظرت إلى "على" بطرف عينى، كان يهذب لحيته بيديه وعيناه مثبتتان إلى الأرض، خشيتُ عليه، ولكن أليس هو من جاء بصديقه ليخطبنى إذن فأنا هى الأولى بالخشية، أنا التى ظُلمت، ظُلمت! لم يظلمنى أحد مثلما ظلمتُ نفسى، ربت أبى على كتفى فوجهت وجهى نحوه وابتسمت، نظر إلى معاذ ثم إلى "على" الذى اقترح باسمًا أن نُعجل بالخِطبة طالما تم التراضى بين الطرفين.

لم أنظر إليه، كيف يقترح شيئًا كهذا وأنا أصارع مع نفسى هنا حتى لا

أكون لغيره، كنتُ قد عاهدتُ نفسى بأن أتمسك وأن أتجنب أى مؤثرات تصدر عنه تجذبنى إليه، وأن أركز على من يحل لى أن أركز معه، وأن أشغل بالى به وأن ألتفت إليه، نظرت إلى معاذ، كان قد انتهى من قراءة الفاتحة مع أبى وأمى وأمه و"على"، كان ينظر إلىّ، نظرتُ إليه وابتسمت، حددا موعد الخطبة، بعد أسبوع؟ فقط! لن أكون قد تعافيت تمامًا -من على- ولكن خير البر عاجله، معاذ بر لأنه حلال، أما "على" فمع الوقت سيتداوى قلبى، خرج معاذ مع والدته و"على"، سمعت "على" يتفق مع أبى أن يتلاقيا فى صلاة العشاء، لم ألتفت، ولم أهتم، دخلت غرفتى أزلت دبابيس خمارى، وقفت أمام المرآة أنظر إلى ملامحى، فككت شعرى على كتفىّ، أنا عروس، سأكون عروس رائعة، دمعت عيناى، هناك ما ينقصنى! أنا لم أكن أريد أن أكون عروسًا فقط! أردت أن أكون عروسًا لعلى! أن تقر عين كلانا بالأخر، لا أعلم ماذا علىّ أن أفعل. نظرت إلى سريرى، كان كتاب"وحى القلم" مُلقى بجوار رأسى من يوم لمسه على، أبعدته عن يدى وعن عينى، ارتديت خمارى ووقفت أصلى لله باستسلام ركعتين قضاء حاجة، الله وحده قادر على إفهامى ما لا أستطيع فهمه، وحده يستطيع أن يُوصلنى لما لم أستطع الوصول إليه، وحده قادر على كل شىء.

أنهيت صلاتى وأنا واثقة فقط فى الله، لا أملك من الأمر شىء والله وحده يملك كل شىء، لا أريد غيره، ظللت أردد دعاء واحد فقط: "اللهم إنك تعلم ولا أعلم وتقدر ولا أقدر".

علي

جلستُ بعد صلاة العشاء تحت قدمّ شيخى عمر، ولأول مرة من بعد حادثة الشباك -كما اسميها لِما حدث بعدها لقلبى- أستطيع أن أرفع عينى فى عينه، وأنا لا أحمل فى قلبى حياءً من خيانتى له، عندما ابتسمت فى وجه "عائشة".

ربت الشيخ على رأسى، فبكيت، لا أعلم لماذا، ولكن هكذا بدون أى مقدمات، بكيتُ كثيرًا حتى أن الشيخ أشار لمن حولنا بالانصراف، اقترب منا أحد المصلين بكوب ماء ثم قبّل يد الشيخ وغادر المسجد، كان الشيخ يربت على رأسى فى صمت حتى غادر آخرهم المسجد، وما أن غادر حتى أخذ الشيخ بلحيتى ورفع رأسى نحوه قائلًا بصوت حاول أن يكون حنونًا: "لا تستعجب من كثرة هموم قلبك أو المشاكل التى تجتاح روحك، عليك فقط أن تؤمن أن الله لن يحملك ما لا طاقة لك به، وأنه يعلم حقيقة أنك تستطيع، ولكن عليه أن يجدك صابرًا ولا تعصى له آمرًا، لا تستكثر على نفسك ما دام الله هو الذى اختاره لك،

فهو مناسب لك".

لم أستطع أن أرد عليه إلا بجملة واحده فقط أجراها الله على لسانى دون غيرها، قُلت وأنا أغالب دموعى: "ادع لى أن أتحمل ما امتلك طاقة لتحمله، وما لا طاقة لى بتحمله"، كررتها ثلاثًا. كنت أعلم أن الأيام القادمة لن تكون سهلة على قلبى، وقد كانت.

"وكما اختبر الله خليله إبراهيم فجعله يرى فى المنام أنه يذبح بُنيه، اختبر الله قلب الفتى عندما أمره الشيخ بكلام متوارٍ بذبح علاقته بها قبل أن تنمو، وكما رد إسماعيل على أبيه بيا أبتِ افعل ما تؤمر، قبض الفتى على قلبه المشتعل".

مرت الأيام على "عائشة" بطيئة للغاية على الرغم من قلة عددها، يومان كانوا أو ثلاث، ولكنهم بالنسبة ل"عائشة" كانوا ٧٥ ساعة! حين دخل والدها عليها الغرفه حتى يوقظها لصلاة الفجر، ربت على جبهتها بحنان ففتحت عينها وابتسمت.

ابتسم لها ابتسامة حانية ثم قبل جبينها وهم بالانصراف، جذبت يده وقبلتها قائلة: "ادع لى"، فجلس بجوارها شاردًا ثم سألها:

-"عائشة"، هل استخرتِ الله؟"

-"على أى شىء!"

-"هل تمزحين!؟ معاذ ينتظر الرد حتى تتم مراسم الخطبة قبل أن يسافر ويعاود عمله من جديد".

-"حسنًا، سأفعل".

-"فى صلاة الفجر! لا تنسى".

قبل يدها وخرج من الغرفة! مسحت عن وجهها آثار النوم، ثم اتجهت إلى الحمام فى غرفتها لتتوضأ، خرجت ساهمة ثم تناولت خمارها وجلست على طرف السرير وهى ممسكة بالخمار فى يدها، مشغولة البال بما يجرى وبما سيجرى فى الأيام المقبلة، دمعت عيناها فمسحتها بقوة، ثم قامت مسرعة، ارتدت الخمار ووقفت للصلاة، تماسكت حتى وصلت إلى"وإياك نستعين" فبكت! أخذت تكررها حتى هدأت أنفاسها وأكملت الصلاة، واستخارت ثم عادت لسريرها، رددت الأذكار وأعادت ضبط المنبه على ال ٧ صباحًا ونامت.

عائشة

فى صباح اليوم التالى، وقبل أن يحضر معاذ لمناقشة أمر الخطبة، كنت وأبى نجلس للحديث فى الأمر، ينخفض صوتنا حينًا ويرتفع آخر، إلى أن ثبت الأمر على أن يسافر معاذ بدون إقامة أى احتفالات للخطبة أو غيرها، ونكون على تواصل إلى أن ترتاح له نفسى فيرجع لتتم مراسم الخِطبة ثم يعود مرة أخرى.

لم أكن أنظر لما بعد ذلك من أمور، وكنت أخبئ "على" فى صدرى، ليس من أحد إلا من نفسى، لا أريده أن يكبر داخلى، وأنا لا أعلم ماذا يقدر الله لنا، ولا أملك من أمر قلبى شيئًا، ولكن الذى بيدى أن أفكر فى معاذ وأن أعطى للأمر متسع من الوقت، وهذا مما سلَمت به لله حتى لا أعصى الله بالانشغال بما لا يرضيه.

بعد مرور أسبوع من لقائى شبه الأول بمعاذ كان عليه أن يسافر لإتمام عمله.

مر علينا قبل أن يسافر بسويعات، كان يحمل معه آنية زجاجية شفافة

كالتى تحتفظ فيها أمى بالسكر والتوابل، ولكن حجمها كان مختلف، كانت تحوى ورد جورى أحمر كما أحب، لا أعرف كيف علم بالأمر! أظن أن للأمر علاقة بأبى لعلمه بولهى بالزهور، كنت أدخر مصروفى لشراء الزهور بدلًا من الملابس والطعام بعض الأحيان، أشترى زهور، أُنسقها وأوزعها على السور فى شباك غرفتى، وبعد أن تفيض الزهور أوزعها على البيت، أعادنى صوت معاذ من شرودى، مد يده بالآنية مبتسمًا وهو يقدمها لى قائلًا:"لا أحب المزهريات الفخارية أو المنقوشة".

أخذتها منه وضعتها على المنضده وسكَتّ،

فأكمل:"أفضّل أن تُجذب الأنظار بالزهور نفسها حتى لا أضيع حقها بانشغال الناظر عنها بنقوش المزهرية".

رفعت عينى إلى الآنية الموضوعة على طرف المنضدة الأيمن بجوار يدى، قُلت:"شكرًا لاهتمامك، أرى أن الأمر يتعلق بالناظر نفسه لا بالزهرة، أقصد أن الناظر لو كان مهتمًا بما ينظر إليه بصدق لن يلفت نظره شيئًا آخر مهما كان الآخر مُلفتًا ولامعًا، الأمر يتعلق بالقلب وما يريد أن يراه، لا بالعين، يمكن للعين أن تقع على الشىء ولا تكون ملتفتة إليه لعدم التفات القلب".

-"عائشة" لم لا تنظرين إلى؟!"

باغتنى بسؤاله، لم أجبه ولم أرفع عينى إليه، ظلت عينى معلقه بالورد -عن قصد-

"عائشة"! انظرى إلىّ لا أحسب أن طلبى يخالف الشرع".

أظن أن سكوتى هو الذى جعله يتمادى فى الكلام، بدوت كتمثال شمع لا يتكلم ولا يتحرك ولا رغبة لدى للمحاولة أصلًا، كنت أخشى أن أتكلم فأجرحه وأنا أرى حبه يظهر فى عينيه والتفاتته وصوته

قال وكأنه يقرأ أفكارى:"انظرى إلىّ، لعل ما ترين فى عينى يُلطف قلبك تجاهى".

لم أحرك ساكنًا فأكمل:"أنا لا أشبهك، وقلبى أيضًا مشوه بالمعاصى، ولكنى أحتاج إليك حتى تأخذى بيدى لله، قلبى يحتاج إلى دعائك، أنا أحتاج أن تكونى خلفى فى كل خطوة أخطوها، أريدك أن تكونى سببًا فى كل طاعة أفعلها، أريد أن أتذكرك بكل عباداتى فتشاركيننى الأجر، هذا كل ما فى الأمر، أعلم أنى لم أكن الرجل الذى كنت تحلمين به ولكننى أحاول، قد أتعثر كثيرًا ولكن بمساندتك ستقل تعثراتى، أحتاج إليك فهذا الطريق وعر نحتاج دائمًا لمن يكون قريبًا، أحتاج إليك قريبة بما يكفى حتى أبكى على كتفك كلما احتجت إلى ذلك، إيماننا يزيد وينقص، أحتاج إليك عندما ينقص، أحتاج إلى أن تكونى

سببًا فى زيادته مرة أخرى، وأنا فى المقابل سأكون معك قدر المستطاع، وإن لم أكن أهلًا لذلك فأنت أيضًا تحتاجين إلى رفيق يُسهل عليك مشقة الطريق، سأحاول جاهدًا أن أكون رفيق رحلتك، حتى النهاية".

كان بى من الحب ما يمنعنى أن أطالع رجلًا آخر غير على، لكننى تخطيت هذا ورفعت وجهى إليه وقلت:"أخبرنى كيف؟"

همس:"أعطني بعض الوقت، نحاول سويًا".

نظرة التوسل فى عينيه جعلتنى أقول:"حسنًا، بعض المحاولة لا تضر".

فاجأنى بابتسامة عريضة، ثم استأذن أبى وغادر.

لا أذكر جيدًا تفاصيل الشهرين اللذين كنا نحاول فيهما معًا، كان يحاول أن يلتزم وأنا أحاول أن أتزن، وكلما حاولت أن أغالب ما فى قلبى من على، تزيد تصرفات معاذ من لفت قلبى إلى خطئى! كان علىّ أن أرفض من بداية الأمر، أى وقت هذا الذى وافقت على إضافته فى هذه العلاقة، لم أفعل فيه شىء غير زيادة الأعباء على قلبى، كنت قد سلمت أمر "على" لله، ولكن نفسى كانت مشغولة به، كنت اتجنب الكلام الذى يذكر فيه، وكنت أحاول أن أهمشه فى عقلى وذاكرتى، كنا فى هذه الفتره نتناقش فى أمور عديدة، وكنا كلما انتهينا من الحديث تزداد الفجوة فى قلبى تجاهه، وتوسع المسافه التى من المفترض أن توصل بين عقلينا.

كنت قد استشرت أحد المشايخ من خلال أبى على أن الأمر يتعلق بإحدى صديقاتى، فأجاب الشيخ أن لا تعلقى أحدًا بكِ وأنت تحملين فى قلبك آخر، لأنك أولًا ستظلمين شخصًا لا يستحق منك هذا وليس ذنبه أبدًا، ثانيًا ستلاحظين أنك ظلمت نفسك بأن أكملتِ فى أمر بدون قلبك، فاستخرت الله وأرسلت إلى معاذ رسالة نصية مُطولة، كنت أشفق عليه ولكن كان يجب للأمر ألا يزداد عن ذلك حتى لا يكبر الأمر فى قلبه عن هذا الحد، وختمت الرسالة:

"...تحمل مشقة الطريق ما دمت تريد الوصول، ولا تحزن إن وصلت ولم تجد ما تريد، أو وجدت أن الطريق لم يكن يستحق كل هذا الجهد، يكفى أنك وصلت إلى ما كنت تريد، لا تهم النتيجة بقدر أهمية نجاح الوصول إليها، استمتع بوصولك ولا تضيع فرحتك على حزنك بعدم وصولك إلى مبتغاك، لعل الله يريدك أن تعتمد عليه وحده، وفر طاقتك للبحث عن طريق آخر يوصل إليه، غيرى".

رد علىّ بنشيد لا أتذكر غير كلماته الأولى كان يقول:"يا امرأة حبها ببالى وطيفها دومًا فى خيالى"، لا أنكر إعجابى الشديد بالكلمات، ولكنى لم أرد عليه، لم أجدنى فيها، معه. بدأ يرسل لى بشكل شبه يومى محايلة ثم تبويخ ثم لوم ثم ندم ثم توسل، كنت كلما قرأت إحدى رسائله أُشفق

عليه وأحمد الله أن وجهنى للبعاد، كنت أبكى عليه ولم أكن أرد أبدًا، ولكننى كنت دائمًا أدعو أن يرزقه الله بمن تحبه ويحبها فتشغله عنى بأن تقر عينه، دائمًا كنت أدعو له، فى النهاية أرسل لى رسالة مطولة أولها شكر وثناء وآخرها دعاء، ثم أخبرنى أنه لولا تجاهلى له لما كان تيقظ لنفسه ولولا كلامى الذى ظل معلقًا فى رأسه ما كان ليخطو خطوة للأمام، بعدها بقرابة نصف العام كان أبى يزف إلينا خبر زواجه من ابنة عمته، ضحكت من قلبى سرورًا لهما، ولمحت أمى بطرف عينى ترمقنى بنظرة لوم وحسرة، فانسحبت إلى غرفتى بهدوء، فتبعتنى، جلست على حافة السرير وقالت بعدما رأت انشغالى عنها: "يا للخسارة، لا أدرى كيف ترفضين الزواج من شاب كمعاذ، يقول أبوك أنه على خلق، ويحاول الالتزام، وكان يظهر جليًا على نظراته لك إنه يحبك، وكان أيضًا سيسافر بك كما كنت تتمنين دومًا..."

أوقفتها عن الاسترسال بأدب قائلة: "الدنيا بها غير معاذ يا أمى".

فاجأتنى بيدها تشد على ذراعى قائلة: "سوف تندمين يا "عائشة".

قلت بصوت هادئ وأنا أسحب ذراعى: "الندم من الشيطان، وأنا أستعيذ بالله منه ومن أن أتشبه به، لا تقلقى يا أمى".

غادرتنى وهى تمصمص شفتيها تعجبًا منى، وأظنها تحدثت مع أبى فى

الأمر، لأنى سمعت نقاشًا حادًا دار بينهما عن خوفها من فوات القطار علىّ، أغلقت الشرفة، وأنا أتمتم:"أى قطار هذا الذى سيفوت بنت التاسعة عشر، أظنها تقصد قطار الملاهى!"، قررت النوم.

*****

ماذا جرى! شىء مصيرى، أظن قلبى بدأ يستقر مكانه، كأن تقرر الذهاب من درب، مستبعدًا آخر عند مفرق طرق، لكنى أنا نفسى لم أعزم على شىء بعينه، جرى ما جرى كله بتيسير من الله.

مع بداية العام الدراسى الجديد كنت قد تخلصت بخير من معاذ وزهوره ومن "على" وحبه، أو هكذا ظننت، لأن ما حدث بعد ذلك أثبت أن "بعض الظن إثم".

كنت فى طريق عودتى من الجامعة يوميًا أمر من أمام المسجد، لأنه بطبيعة الحال بجانب بيتنا، وكنت كلما مررت أحس بوخزة فى قلبى، موجعة ربما ولكنها ممتعة، كنت أحب أن أستشعرها كنت فى بعض الأحيان أتعمد تذكير نفسى بموقف الكتاب وبحادثة الشباك وبعلى؛ حتى أستشعر وخزة قلبى، كنت أتمنى أن يستشعرها كلما شعرت بها، كنت أدعو الله كلما مررت بمكان رأيته فيه أن يجمعنى به، حتى وإن كان موضع جلوسه فى بيتنا، إلا أننى فى غير هذه الأحيان كنت أتناساه

وأتشاغل عنه بحضور ندوات ودروس علم، وكنت أشغل نفسى بالقراءة فى أوقات الفراغ بين المحاضرات، كنت أتشاغل عنه، كنت سمعت من أحد الشيوخ:"إن الحب أمر يكثر بالشغل ويقل بالانشغال"، فأخذتها نهج أسير عليه، لا لتقليل حبه من قلبى، ولكن ربما لتسكين قلبى، لأنى لم أكن ألاحظ أنه ينشغل عنه أبدًا، حتى وإن بدا أن عقلى مشغول، وكلى مشغول.

حضرت فى أحد المرات ندوة بعنوان"الشرك الخفى"، كنت أخشى كل الخشية أن يكون تعلقى ب"على" تعلق يندرج تحت الشرك الأصغر، شرك محبة، كنت أصعق من الفكرة، تكلمت يومها مع المُعلمة وأنا أرتجف، تحدثت معها عن قلبى بشكل عام وعن تعلقه بالمخلوقين بشكل خاص، قالت لى عن قول السلف:"إن العشق حركة لقلب فارغ، يعنى فارغًا مما سوى معشوقه"، أخبرتنى أن الإخلاص سببًا لدفع العشق، لا أعلم كيف، ولكنى تحدثت معها عن على، كانت المرة الأولى التى أحدث بها أحدًا عن شعورى تجاهه، صرفتنى عنه بلطف ووجهتنى لما يجب علىّ التوجه إليه، قالت بصوت حنون كأنما تشعر بالحرب التى تعتمل صدرى:"العشق مرض من الأمراض، وقد جعل الله له الأدوية شرعًا وقدرًا، داوى قلبك بالانشغال بالله حتى يأذن الله بالخير، والله

وحده أعلم بالقلب وتقلباته، وأمكن به منك، يقول هرم بن حيان: "ما أقبل عبد بقلبه إلى الله، إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه ودهم"، ثم ابتسمت وأكملت:"بصدق يا "عائشة"، خرجت من عندها ألهث، أستغفر، أستعيذ بالله من أن أشرك به شيئًا وأنا لا أعلم، عدت إلى البيت وأنا أبكى وأدعو الله، بل ألهث رجاءً ألا يشغلنى بشىء عن ذكره، أجدد العهد مع الله، أحاول إشغال نفسى عن الأمر كله، وأعاهده بأنى سأحاول ألا يسبق فى قلبى حبه أحد.

كانت تتحدث بخشوع عن وجوب غض البصر، وعن فرضية ستر القلب عن مفاتنه، فسمعته يقول:"كن كيف شئت من البُعاد فأنت من قلبى قريب".

رفعت عينيها بعفوية وهى تعيد وضع الإبرة فى خمارها الأسود، فرأته ويا ليتها لم تره! كان جالسًا على الجانب الآخر واضعًا كفيه على فخذيه كمن أنهى صلاته للتو، ناظرًا إليها، وعلى الرغم من كل شىء(فُتِنَت).

استيقظتُ من الحلم، بل أقول رؤيا لرؤيتى إياه، أو أقول بُشرى بأنى من قلبه ربما أكون قريبة كما تردد فى أذنى.

توضأت، وجدت أن الفجر لم يؤذن بعد فسررت لذلك وصليت قيامًا ثم أوترت، أذن الفجر وأنا أسلم من الوتر، لم أشعر بنفسى ولم أحبسها

أو ألومها وأنا أدعو الله أن يجمعنى به عاجلًا غير آجل فى القيام والوتر وبين أذان الفجر وإقامته، لأنى والله يعلم قد"فُتِنت".

لم تكن تعلم كيف تسكب ماء قلبها وتحفظ ماء وجهها، فكَتمت.

علي

كنت مع الشيخ عمر نجهز أوراقنا من أجل الذهاب لأداء العمرة، الأمر كان أشبه ما يكون بالحلم، الخيال، لا أصدق أدعو الله أن يُتم الأمر سريعًا، حبيبتى الكعبة! يقولون إن المشتاق الذى لم يرك لن يعد نفسه كان من المشتاقين بعد أن يراك، لأن الشوق فيما بعد يُنسيه شوقه الذى كان، لم أكن أصدق قولهم وأنا المشتاق الولهان، كنت أدعو الله أن يُشرفنى بزيارة بيته، كنت أعلم أنى لا أستحق هذا الشرف، أن أكون ضيفًا لله فى أشرف بيوته، إن الأمر لعظيم، كنت أخجل من قلبى وأنا أدعو الله أن أذهب، قلبى المُمزق بالخطايا كان يحتاج لترقيع.

ذهبنا أنا والشيخ وزوجته لاستخراج الجوازات وإتمام الإجراءات، تم قبول الأمر من السماء، وجدنا أسماءنا موجودة ضمن الكشوفات التى سُمح فيها من اللجنة بالذهاب؛ "عائشة"،(وضعت يدى على صدرى لأخفف من وطأت ضربات قلبى)، مريم، عمر، هالة، على.

لم أفق من سكرتى إلا على صوت الشيخ، وكنا أمام بيته، يقول:"اذهب

الآن يا على، أمامنا أسبوع شاق قبل السفر، علينا أن نبحث من الآن عمن يخلف مكاننا فى المسجد، أراك فى صلاة الفجر بُنى".

قبلت يده وابتسمت، ثم سرت فى طريقى إلى البيت، لأنام حتى الفجر، ومن أين يأتى النوم.

يا طول علة قلبى!

ركبنا السيارة يقودها أحد طلاب الشيخ،

أجلس بجواره وفى الخلف يجلس الشيخ وزوجته ومريم، أضع يدى على صدرى، و"عائشة".

منذ أن لمحتها وأنا أحمل الحقائب من الشيخ لأضعها فى السيارة وأنا أخشى على قلبى من الفضيحة، فأضع يدى على صدرى كلما تحدثت فسمعت صوتها أو كلمها أحد فذكر اسمها، قلبى العليل، أخشى أن يخوننى ويغادر صدرى!

وصلنا المطار، قضينا قرابة الساعة فى إنهاء الإجراءات اللازمة قبل وصول الطائرة، ثم نحو نصف ساعة فى انتظار النداء للصعود على متن الطائرة، وما لمحتها إلا وهى تتلو القرآن على مقربة من الشيخ، تُخطئ فيعاودها، تُسرع فيبتسم ويُبطئها، حتى نودى على رقم الطائرة فتأبطت ذراع والدها بوجه برىء وابتسامة عذبة سائرة نحو الطائرة، جلسنا

ثلاثتنا أنا والشيخ وزوجته فى المنتصف وجلستا مريم و"عائشة" بجوار النافذة عن يميننا، يمينى خاصة، حمدت الله أنها ليست على شمالى والمسافة بيننا ليست قريبة كفاية حتى لا تسمع صوت قلبى.

بعد أن قطعنا تقريبًا نصف المسافة أيقظت الشيخ وأيقظ زوجته وسمعتها تهمس لمريم تُقظها للأكل، أبعدت كتابها عن قدميها على الرف فوقها، ثم تناولت الطعام من يدى المضيفة أعطت لأختها ثم وضعت أمامها، أنهينا الطعام، لمحتها تعبث بأزرار الشاشة أمامها، ابتسمت وأشحت وجهى عنها.

قامت لتحمل الحقائب عن الشيخ بعد أن أعلن الطيار عن الوصول، أمسكت بيده وسارت أمامنا من بعدهم أمى هالة ومريم، لمحت الكتاب على الرف كما هو، ابتسمت وحملته إلى حقيبتى، استغفرت وسِرت خلفهم.

أحرمنا حين وصلنا جَدة،

إلى أن صليت الركعتين وأنا لا أصدق أن الله قد كتب لى الأمر وأنا من أنا، أخذ قلبى يردد:"اللهم بئس العبد أنا، نعم الرب أنت، اللهم اغفر لى، اللهم لك الحمد".

أُنجزت الأوراق بتيسير، انتقلنا بعدها للخارج، حملتنا أول سيارة

أجرة وجدناها، الجو حار جدًا، سبحان الله وكأننا بأرض غير الأرض، تذكرت النبى وهو يهاجر من مكة للمدينة بدون سيارة، بدون مكيف، صلى الله عليه وسلم.

كنا قد نوينا العمرة فى نفس اليوم، فقط نذهب إلى الفندق نضع الحقائب.

ولكن التعب كان قد بلغ منا مبلغًا شديدًا، ما أن وضعنا حقائب النساء فى حجرتهن وذهبت أنا والشيخ إلى حجرتنا، كنا نتسامر عن آداب العمرة، صلُّينا العصر وجلسنا ثانية فغلبنا النُعاس.

استيقظنا للمغرب، نزلت والشيخ نبحث عن مسجد قريب للفندق، إلى الآن أنا لا أصدق، إنى هُنا على مقربة!

-"دكت الأشواق بقلبى دكة بعد دكة، واعتلت أصوات روحى إننى أحتاج مكة".

عُدنا من المسجد فطرق الشيخ الباب على النساء وسبقته إلى حجرتنا، جاء إلى بعد عشر دقائق تقريبًا يحمل الطعام، أكلنا وتحدثنا قليلًا، ثم قال الشيخ إنه وعدهم بالنزول بعد أن نأكل لأداء مناسك العمرة، غسلت يدى بالماء وذهبت ألبس الحذاء، طَرقت الباب ثلاثًا ونادت أباها.

فمسكت قلبى!

سِرنا من أمام الفندق حتى موقف الحافلات الذاهبة إلى الحرم، نَزلنا أمام بوابات حديد بيضاء قصيرة نسبيًا، سرنا قليلًا تحت رشاشات الماء، كنت أتطلع حولى بدهشة، ها أنا ذا حولنا برج الساعة، فندق الوقف، يا الله، تطاول فى البنيان قد بلغ مبلغه، سرنا ببطء من الزحام، لم نكد نصل للكعبة حتى أُذن للعشاء، صلينا فى الساحة، ثم اقتربنا فنودى لصلاة الجنازة فصلينا، ثم أشار الشيخ إليهن حتى يُسرعن قبل بدء التراويح، سرنا من باب الملك.

"الله أكبر!"، أمامى الآن:" اللهم زد هذا البيت تشريفًا وزد هذا البيت تعظيمًا، سُبحان الله"، أشعر أن قلبى خارج صدرى، قلبى يطير الآن. سمعتها تقول بصوت خفيف:"اللهم كما حملتنا إلى هنا، اللهم احملنا إلى الجنة، اللهم كما رزقتنا لذة النظر إلى الكعبة، اللهم ارزقنا لذة النظر إلى وجهك"، أمنت على دعائها فى سرى ثم سرنا للأمام، بحثنا عن اللمبة الخضراء وما أن وصلنا حتى بدت على وجوهنا السعادة، بدأنا بالمناسك، "بسم الله، الله أكبر، اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار"، وبدأنا بالطواف مرة فمرة حتى أتممناهمن سَبعًا، خفيف كان الأمر، صلينا خلف المقام، ثم اتجهنا للداخل بحثًا عن

الصفا والمروة، لم تكن المرة الأولى التى يحضر فيها الشيخ عمر، فكان دليلنا، سعينا سَبعًا ودعونا، صلينا ركعتين ثم تحللنا، كل هذا وأنا لا أشعر بنفسى روحى ليست هنا، لست أشعر أننى بين الناس.

عُدنا إلى الفندق، تسحرنا، نزلت والشيخ لصلاة الفجر، جلسنا للشروق ثم عُدنا، نمنا للظهر.

أمسينا نصلى التراويح فى الحرم، كنا نعيش مع الآيات، تُتلا علينا كأنما تُنزل.

جاءت العشر الأواخر من رمضان، اعتكفت والشيخ فى المسجد، وكان يخرج من وقت للآخر حين تحضر زوجته وبناته بالطعام، يأخذه ونأكل، ينتهى التهجد فيخرج يودعهن ويعود، فى الليلة الخامسة والعشرين من رمضان الحالى، ما أن خرج الشيخ ليودعهن حتى أقبلت علىّ على استحياء تحمل حلوى، ذهبت إليها لآخذها، وما كِدتُ ألتف لأعود حتى سمعت صوتها تتحدث، وضعت يدى على صدرى، قائلة:"هذه حلوى، جهزتها بنفسى"، ثم أردفت:"كنت أبحث عن(وحى القلم) فأخبرنى أبى أنك تحمل نسخة، وأنا أحتاجه لأهون به علىّ العيد بعيدًا عن البلد والصحبة، هل بإمكانك أن..."

قطعت كلامها قائلًا:"هو لكِ".

فقالت بخفوت:"جزاك الله خيرًا، ولكن فضلًا سأُعيده".

قلت بهدوء وأنا أحاول إخفاء أثر خفقان قلبى:"صدقًا، هو لكِ، لقد نسيتِه فى الطائرة فحملته معى، ولم أجد الفرصة حتى أعطيكِ إياه، لحظة سأبحث عنه بين الأشياء هنا".

وتركتها وسرت نحو حقائبى.

كاد يعود إليها حين استوقفه شيخٌ ممن يعتكفون معه، أشار إليها الشيخ برأسه طالبًا منه أن يعلمه حقيقة الأمر بينهما، فنظر إليها فوجدها تنظر إليه متسائلة، فابتسم لها مُطمئنًا والتفت لشيخه يقول:"هى رفيقتى أتوكأ عليها إن مالت بى الحياة، وأهش بها على حزنى، ولى معها مآرب أخرى".

ابتسم الشيخ ووضع يده على صدرى وقال لى:"إنك إن تفتحه تلجه، اذهب إليها وعد لنتحدث".

عُدت فأخبرتها أنى لم أحمل الكتاب معى ووعدتها أن ليلة ٣٠ سنعود للفندق فأعطيها إياه.

عاد إلى الشيخ حيث كان، أذن العشاء فاصطفوا أمام الكعبة صلوا العشاء والجنازة، وذهب الشيخ عمر للنوم قليلًا قبل القيام والتهجد، وجلس "على" أمام الكعبة يدعو، صلى ركعتين ومع رفع يديه للبدء فى

المزيد وجد يد حانية تمسح على رأسه، نعم! شيخ المعتكف، جلسا فتحدثا عن الأمر، نصحه الشيخ: "أى يا مسكين هذا مرض من أمراض القلوب إذا تمكن واستحكم عز على الأطباء دواؤه، فإن كان هناك سبيلًا إلى الوصول إليها شرعًا فهو علاجك، عليك أولًا بالاستخارة، ثم عُد إلى الفندق، أعد لها الكتاب مصحوبًا بمرسال تستشيرها فيه أو تخبرها بنيتك فى خطبتها، فإن وجدت منها الرضا والقبول فحدث الشيخ وتوكل على الله، لا تستحى بُنى، هذا هو الخير، يقول حبيبنا صلى الله عليه وسلم: "لم ير للمتحابين مثل النكاح"، ثم مغبون من يجد امرأة تعينه فى الطريق إلى الله، ثم تركها تفلت من يده".

قام ليكمل صلاته وقد شعر أنه أصبح خفيفًا يكاد يطير مع كل خطوة، يشعر أن قلبه لم يعد مُثقلًا، يشعر أنه حدث الشيخ بما يعتمل صدره دون وعى منه، يحس بالحرية فقط لأنه يفكر فى أنه سيبوح بسره الصغير، كل ما كان عليه أن يحمد الله.

عاد إلى الفندق توضأ وكتب رسائله، ثم عندما قابلها ليلة العيد فى الحرم أعاد لها الكتاب معه عدة وريقات صغيرة، كتب فى كل وريقة جملة وترك فراغًا لردها.

فى أول أيام العيد وجد الوريقات على باب الحجرة عندما خرج لصلاة

الفجر، تناولهن وهبط وأغلق الباب خلفه، سار نحو الشيخ الذى سبقه إلى باب الفندق بخطوات مرتبكة متعثرة وبقلب يخفق ويطير.

كان عيده عيدان، النصوص فى الوريقات بالترتيب الذى أرسله لها، مُرفق معه ردها:

-على:"يقول صديقى الرافعى:"أشعر الساعة أن قلبى نصف قلب فقط، وأن نصفه الآخر فى هذه وحدها، فما شعورك أنت؟"

"عائشة":"ألم تقرأ أنه يقول أيضًا:"يا صديقى، إن الله رحيم، ومن رحمته أنه أخفى القلب وأخفى بواعثه ليظل كل إنسان مخبوء عن كل إنسان"؟"

على:"إنى أحبك، دائمًا سأقولها، بلسان قلبى لا بلفظ لسانى".

"عائشة":"صديقك يقول:"لا عصمة على المحب إلا إذا وُجد بين إيمانين؛ أقواهما الإيمان بالحلال والحرام، وبين خوفين؛ أشدهما الخوف من الله، وبين رغبتين، أعظمهما الرغبة فى السمو"، أنا أومن بالحلال والحرام، وأخشى الله وأرغب فى السمو بمصاحبتك".

-على:"فإن شئت واصلنى وإن شئت لا تصل، فلست أرى قلبى لغيرك يصلح".

-"عائشة":"يقول الرافعى:

"إن كل إنسان يعلم أن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين"،

ولكن كل امرأة منا تعلم أن الخط المعوج هو وحده أقرب مسافة بينها وبين الرجل، وأنا لا أرى ذلك من الخير! أنا لا أتبع خطوطًا معوجة، أحبك".

أنهوا صلاة العيد وقد اتفق والشيخ أن يكملا ما تبقى من أيام لهم هنا، فى المدينة حيث الحبيب.

التحقوا بالأتوبيس المتجه للمدينة المنورة، الشيخ يجلس وزوجته عن يمينه ويجلس "على" بجوار شيخ من الرحلة، وتجلس مريم وعن يمينها "عائشة"، على شمال على، بجوار قلبه بلا خَشية.

-نظر إليها فابتسمت، فردها لها من دون أن يضع يده على صدره.

"الخيال بين المتحابين روح طبيعى، كأنه قلب ثالث ينقل للواحد عن الآخر، ويصل السر بالسر". وحى القلم

عائشة

فى طريق العودة ونحن فى الطائرة، لا أعلم كيف حدث، هم أبى أن يجلس عن شمالى مكان على، ولكنه نظر إليه ثم ابتسم وجلس بجوار أمى، التى نظرت إلى وابتسمت بدورها، رأيت فى عيونهما شىء، أيقنت وقتها أن الهوى فضاح، فى منتصف المسافة مد "على" يده إلىّ بسبحته الخضراء وقال:"هى لكِ"، كان عفويًا بريئًا، لم أكن أنتبه أن سبحتى قد ظهرت من أسفل كم العباءة وأنا أتناول منه السِبحة إلا عندما قال: "هاتِ عنك هذه، تكفيكِ واحدة"، وهو يشير برأسه إلى يدى.

أخذت نفسًا لأهدئ خفقان قلبى قبل أن أبتسم، ثم فككتها عن معصمى وناولتها له، وقد أخفضت عينى وأنا أقول له بدورى:"هى لك".

كنت أشعر وقتها أنا لم نُهدى بعضنا خرزات إحداهن زرقاء والأخرى خضراء، بل كنا نتعاهد على شىء غير منطوق، بل محسوس.

وأنا أعود برأسى للخلف حيث كانت لمحت وجه أمى يتطلع إلينا بابتسامة، كان وجهها كأجمل نساء الدنيا، لم أشعر وقتها بالقلق أبدًا من

ردةً فعلها عما فعلتُ عند عودتنا إلى البيت كما كنت أخشى دائمًا، ليس تحليلًا لما فعلنا، ولكننى كنت أخشى أن أضيع تلك اللحظة، لا أعلم كيف فعلتها، ولكنى رددت إليها الابتسامة بابتسامة مُطمئنة، ابتسامة أم لابنتها مشجعة وليس العكس، ولكنى لم أستطع بعدها أن أرفع عينى إلى "على" حتى بعد أن حمل عن أبى الحقائب على باب البيت، وبعد أن طلب منى أبى أن أجهز لهما كوبين من الشاى الساخن، ولكن ليس بعد أن طلب منى أبى أن أجلس مع "على" حتى يتوضأ هو للصلاة، لم أفهم ما يعنيه أبى من وقع المفاجأة، أو أنى كنت واعية تمامًا فارتجف قلبى بشدة أوقفت عمل عقلى، وكنت سأهرب كالمعتاد إلى غرفتى حتى طلب منى "على" بحياء الجلوس، فنظرت إليه بسكون ثم جلست باستسلام، فغادرنا أبى.

قال بهدوء:"متى نتزوج؟"

لم أجبه، بل نظرت إليه ثم أعدتُ بصرى إلى الأرض وأنا عاجزة تمامًا عن النطق.

همس وهو يضع يده على صدره:"أيا لك نظرة أودت بقلبى وغادر سهمها قلبى، جريحًا فليت أميرتى جادت بأخرى"، ثم عاد إلى صوته قائلًا: "رفقًا بى!"

أجبت بصوت رقيق وأنا أخفض رأسى لأخفى ما انتاب وجهى وعينى من الخجل:"أخبرنى أنت، أرى إنك حدثت أبى عن الأمر".

قال مبتسمًا:"تبارك الله، أنت سريعة البديهة! لقد حدثته عن الأمر قبل أن أحدثك".

حركت رأسى متسائلة بعد أن لمحت السخرية فى صياغة جملته.

قال:"لقد حدثته عن الأمر قبل أن أعيد إليكِ الكتاب، وأخبرته عن نيتى فى كتابة الرسائل، لم أستطع، كان ليعلم بالأمر من عينى، كُنت سأفتضح أن لم أعترف، لم أكن على سجيتى ليلتها ولا يومها، كان لا بد، لم يشجعنى على الأمر إلا ابتسامه الشيخ لى وأنا أحدثه عنك، وأيضًا لم أكن لأقبل على الأمر برمته دون علمه وهو أبى، الشيخ عمر ليس أباكِ وحدك!"

سألته:"وماذا كان رأيه؟"

قال مُبتسمًا:"ابتسم لى وأخبرنى أنى لا أجيد الاختباء أبدًا، وأن عينى قد فضحتانى".

قال وهو يبتسم حتى بدت أسنانه:"لم تجيبى متى نتزوج؟"

قلت وأنا أعبث بالسبحة فى يدى:"متى ترونه مناسبًا؟"

قال:"أرى أن خير البر عاجله"، رفع رأسه ثم نادى أبى.

حضر أبى وآثار الماء على لحيته، أظنه فزع!
أخبره «على» سريعًا أننا اتفقنا أن العقد سيكون غدًا وأنه سينتظره ليحدد الوقت تمامًا.
نظر أبى إليه، ثم إلىّ، ثم أخذ بيد «على» الذى كان مستندًا إلى الحائط يتطلع إلىّ وسار به نحو الباب، تناول حذاءه ثم قال له وهو يجره للخارج كما قال أبو بكر لمحمد بن القاسم:«هؤلاء فتن الرجال، وكم قد مات بهن من كريم وعطب عليهن من سليم»، وغادرانى.
هربت إلى غرفتى كما كنت أريد، توضأت فى الحمام الملحق بالغرفة وكأنى أوقظنى من النوم، لم تكن آثار السفر قد مُحيت من وجهى ولا حتى آثار الدهشة مما يحدث، ولكنه بدا صافيًا وفرح، فابتسمت لنفسى ثم عَلت الابتسامة وصارت ضحكة، توجهت إلى الشرفة فنظرت نحو المسجد، كانت الصلاة تُقام حينذاك، صليت، وحملت الحقائب من الخارج إلى الغرف، ثم انتظرت أبى أن يأتى حتى أعلم آخر الاتفاقات، ولكنه تأخر فغلبنى النوم.
ربت أبى على جبهتى بحنان ففتحت عينى وابتسمت، ابتسم لى ابتسامة حانية ثم قبل جبينى كما هى العادة وهم بالانصراف، فتعلقت برقبته وقبلت رأسه وابتسمت، لمحت الضحكة فى عينه قائلًا:«هل أغنى

لكِ؟"

فابتسمت وأنا أهز رأسى أى نعم.

فأخذ يُنشد:"أفراح أفراح، أفراح أفراح وورود، والورد بيضحك للعرسان والفرحة ماليها حدود أفراح أفراح أفراح"، وأخذ يرددها حتى دمِعت عيناى من الضحك، قال:"سأذهب إلى المسجد لأتفاهم مع زوجك، حدثنى فى الهاتف أكثر من مرة يستعجلنى فى الحضور، يقول: "لم أذق النوم من الأمس"، لو أعلم أن الأمر هكذا لكنت أعطيته إياك من الأمس".

ابتسمت.

قال وهو متجه خارج الغرفة:"لا تنامى حتى أعود فنتحدث عن الأمر، قد يأتى معى ليأخذك لا أضمنه لكِ".

عاد أبى فأيقظ أمى وحضرا إلى غرفتى، قال أبى:"سأعترف، لم أر "على" هكذا طوال الخمس سنين الماضية، لو رأيتيه يا هالة لقلتِ إنه مراهق فى الحادية عشرة من عمره، عندما دخلت المسجد وجدته يوزع الحلوى على المصليين وهو يبتسم ووجهه أحمر وعيناه جاحظتان من أثر السهر ولا يعبأ".

قال أبى موجهًا نظره إلى أمى:"فبعضى لدى وبعضى لديك"، فابتسمَت.

فنظر أبى إلىّ يكمل وهو يغمز بعينه:"وبعضى مشتاق لبعضى، فهلا أتيت؟"، فابتسمت أنا.

سألته أمى:"وماذا بعد؟"

قال أبى:"إن المحبين لا يشفى سقامهما إلا التلاقى"، اتفقنا أن نعقد مع صلاة العصر، تكن أبلغتن من تريدن حضورهم وتتجهزن".

قالت أمى بدهشة:"بهذه السرعة؟!"

قال أبى:"لا أرى فى التأخير خيرًا"، وأخذ بيد أمى متجهًا خارج الغرفة قائلًا:"فلتنعم العروس بقسط من الراحة، تكفينا عينان حمراوان لا تجعليهن أربعة أرجوك".

أخذنى أبى معه إلى المسجد بخمارى الأبيض، وعندما وصلنا إلى باب المسجد وضع على رأسى تاج من الزهور، وقال:"هذه أرسلها لكِ على، انتظرينا فى الأعلى"، صعدت السلالم إلى مُصلى النساء، حضر أبى ومعه الدفاتر فمضيت وختمت، فأخذ يدى وقبلها ثم وضع يده على رأسى قائلًا:"بارك الله لكما"، وغادرنى، فعدت حيث كنت أجلس مع رفيقاتى، نصحننى بعدما لاحظن شدة الحمرة فى وجهى ألا أستمر بمراقبة "على" من الشباك الذى يطل على الرجال، وأن أنشغل معهن حتى لا أشعر بتوتر، وبعد قليل صعد ليأخذنى لأعود إلى البيت لنُكمل الاحتفالات

هناك.

«عاهدتنا أن تتجنب مؤثرات انشغالها به والحديث عما يجذبها نحوه قدر المستطاع، حتى حضر، وجدناها ترفع خمارها الأبيض على وجهها مُبتسمة، استقبلتها عيناه بابتسامة حنونة، فعلمنا سر فِتنتها».

عائشة

سافرنا بعد العقد أسبوعًا بصحبة أبى وأمى ومريم و"على" وأمه إلى البحر، كنا نتمشى على الكورنيش قليلًا فيجلسون على مقربة منا أو يغلبهم التعب فنُجلسهم ونكمل السير ونحن نمسك بأيدى بعضنا البعض كأن أحدنا سيحاول الهروب، نعود إليهم وقد ضّجوا من الزحام وصخب السيارات وأبواقها وعوادمها، فنعود إلى البيت.

أحيانًا ننزل أنا و"على" فقط إلى الشاطئ نخلع نعلينا، يشّمر أطراف بنطاله، نخوض بقدمينا فى التراب وأحيانًا نغوص فى الرمال المبتلة على باب البحر، نظل واقفين حتى نشعر بالتعب فنتراجع عن البلل فنجلس متجاورين، لا نتحدث كثيرًا، ولا نفكر فى شىء.

عندما رأى أبى سعادتنا وانسجامنا مع البحر اقترح أن يكون بيتنا هنا، أعجبتنا الفكرة ونظرنا فى الأمر، كنّا كلما سِرنا معًا نبحث عن بيت بإطلالة على البحر ثم نسير نحوه، أحيانًا لا يطمئن "على" للمسؤول عن العمارة، أو يقلقه فى أخرى أنها بلا حارس، وأخرى لا تطل على

البحر إلا من نافذة واحدة، نصحنا أبى أن نترك الأمر عليه، ففعلنا.
-فى آخر ليلة لنا لم نعد معهم إلى البيت بعد أن صلينا الفجر، طلب "على" من أبى أن يتركنا حتى الشروق لنودع البحر، تمشينا قليلًا ثم جلسنا نتحدث حينًا ونصمت حينًا ونحن نتابع إشراق الأرض بنور الله فيها، وفجأه هب "على" واقفًا، تبعته، ووضعت يدى بين يديه، وسرنا قليلًا، ثم قلت له:"تحدث!"
كان يهم على سحب يده فشددت عليها، وأعدتُ عليه الكلمة:"تحدث!"
قال وهو ينظر إلى البحر:"ماذا عمن يموت دون أن يغزُ!"
تفاجأت من موقع الجملة! أعتقد إنه ليس وقتها، ولكنى أجبته بصوت مهزوز وقد أرخيت يدى عن يديه:"ألم يحدث نفسه بالغزو؟!"
قال:"بلا، ولكن قلبه معلق بالأرض!"
قلت وأنا أجاريه فى الكلام:"فليتخلص من قيوده".
قال وهو يترك يدى:"لا يتم الجهاد إلا بالهجرة!"
قلت:"من أرسل بنفقة فى سبيل الله وأقام فى بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم".
قال:"ومن غزا بنفسه فى سبيل الله وأنفق فى وجهه ذلك؟"
قلت وأنا أغالب دموعى:"له بكل درهم سبعمائة ألف درهم، والله

يضاعف لمن يشاء".

قال وهو يرفع وجهى لأنظر إليه:"أتدعو كريمًا أن يجود بماله، ومن جاد بالنفس الكريمة أكرم"-أبو فراس الحمدانى.

صمتت ثم عدت من شرودى قائلة:"آتى معك"، ومسكت يده.

أفلت يده قائلًا:"وأهلك، وأمى لن تتحمل الأمر! أظن لن تستوعبه".

قلت:"متى نتزوج؟"

قال:"متى تريدين؟"

قلت بجدية:"فلنسرع فى الأمر نُجهز البيت ثم نتزوج، بعدها نخبرهم أننا سنسافر".

قال وهو يمسك يدى مرة أخرى ونسير محازين للبحر كما كنا:"ننظر فى الأمر ونستخير الله".

نظرت فى الساعة بيده، مرت ساعتان! يا رجل كيف يمر معك الوقت بهذه السرعة!

قال وهو يبتسم:"هل تعلمين ماذا يقول صاحبنا فى هذا؟!"

فهمت إنه الرافعى، فتذكرت الرسائل وابتسمت! تصنعت التركيز:"لا أعلم، هلا أخبرتنى؟"

قال ضاحكًا:"إنى أرى الزمن قد انتسخ مما بينى وبينك، فإنما نحن

بالحب فى زمن من نفسينا العاشقتين، لا يسمى الوقت ولكن يسمى السرور".

أكملت عنه: "نعيش فى أيام قلبية، لا تدل على أوقاتها الساعة بدقائقها وثوانيها، ولكن السعادة بحقائقها ولذاتها". – وحى القلم.

فضحك وقال: "تعلمين يا "عائشة"؟ أحيانًا أشعر أنى لا أخشى رفض أمى وخشيتها على، ولا أخشى حتى حرص أهلك على سلامتنا، ولكن جُل ما أخشاه هو أنت! أن توقفينى عن السير فى الطريق، أعلم أنك لن تمنعينى قولًا، ولكن عينيكِ ستفعلان! إن كان الأمر متعلقًا بقلبى، فإننى سأقدر عليه! إلا هذه والله! الخشية الخشية منها، عيناكِ".

كنت أشعر أنه يمزح فقلت: "سأكون معك، ولن أبكى عليك، أو يا حبذا أفقد حبيبتى قبل أن أفقدك".

شد على يدى ثم سَكت، وانصرفنا فى طريقنا إلى البيت.

"قال صاحب القلب المسكين: انظر إلى هاتين العينين، إنهما من العيون التى تفتن الرجل وتسحره متى نظرت إليه، وتعذبه وتضنيه متى غابت عنه، إن فى شعاعهما قدرة على وضع النور فى القلب السعيد، كما أن فى سوادهما القدرة على وضع الظلمة فى القلب المهجور"– وحى القلم.

جهزنا بيتنا بأقل الأشياء، كنا نعلم فى قرارة أنفسنا أن هذه الديار ليست

لنا، وأننا سنغادر فى أقرب وقت، لم نهتم بدهشة من حولنا، لم نزهد حتى لا نلفت نظر أهلينا أو نشغلهم ولكننا تخففنا، كنا نعمل على إكثار البركة فى الأمر برمته ليس إلا، فقط مقعدان من المقاعد الجلدية التى تتمدد للاسترخاء وضعناهما فى الشرفة المطلة على البحر، سريران أحدهما فى غرفتنا والآخر فى حجرة للأطفال-الذين نعلم فى قرارة أنفسنا أنهم قد لا يرون هذا البيت بالكلية- ومعهما دولابان مناسبا الحجم، ثم فى الصالة وضعنا صالون مع طاولة خشبية ريفية إنجليزية الطراز، وفى يمين الصالة وضعنا بعرض الحائط مكتبة جمعنا فيها ما لذ وطاب لنا من الكتب، كانت هذه المكتبه أحب الاركان فى بيتنا، والمطبخ بمحتويات صغيرة لتلبيه حاجتنا حتى يأذن الله ونسافر، كان الأهل يعبرون عن قلقهم لأنا نختلف عن جميع الأزواج، ويستشعرون القلق من آراء الناس التى قد تؤلمنا، ونحن لم يصلنا أى من هذه الأحاسيس، نحن نعلم أن هذا البيت ما هو إلا صورة مصغرة جدًا عن بيتنا الذى نتمنى من الله أن ننتمى إليه، كنا عندما نتخيل البيت الذى يجمعنا وما يحوى كنا نرتبها على بيتنا فى الجنة هناك، أسفل العرش، لم نكن نسمع رأى الناس اذا تحدثوا أو نشعر بشعور أهلينا إذا انتقدنا أحد، كنا نحلق بأرواحنا بعيدًا عن هذه الدنيا، لا يلفتنا شىء من متاع الدنيا، وإن بدا

ظاهريًا أننا نفعل، نحتكم بيننا بالمحبة زيادة أو نقصانًا، ليس بالشقة والأثاث والألوان والكماليات وكل ما لم ينزل الله به من سلطان، اتفقنا أن نحتكم بكلام الله وبرسوله، وألا نلتفت إلى أصنام المجتمع وما يدعون إليه من مغالاة وتبذير، خصوصًا ونحن نعلم أننا فى كل الحالات سنستظل بهذا البيت حينًا، نستريح استراحة مقاتل ثم نغادر،

*****

كان عرسًا هادئًا تحوطه البركة والسكينة، لا تُرى لكنها مستشعرة، خاصة عند وجهيهما، فهالة البركة تظهر جلية فى ابتسامتيهما والحب المتدفق من عينيهما، وصفائهما الملائكى، فى خمارها الأبيض الحريرى الذى يحيط بوجهها فى خفة وبلا أى تصنع أو تفريط، فقط خمار أبيض مثبت فيه حجاب شفاف من التُل ينسدل على كتفيها بعناية، وفى حلته الداكنة التى تبدو حريرية الملمس من لمعتها وقميصه الأبيض، لن تستمع إلى أصوات موسيقى صاخبة كما تعتاد فى الأفراح، فقط ستسمع صوت دف مع كلمات أحمد أبو خاطر بصوت سحرى يقول وهو يكاد يقتلع الحب من قلبك بل قلبك من صدرك:

"أحبك، مثلما أنت، أحبك كيفما كنت،

ومهما كان مهما صار أنت حبيبتى أنت،

حلالى أنت لا أخشى عذولًا همُه مقتى لقد أذن الزمان لنا بوصل غير منبتِ

سقيت الحب فى قلبى بحسن الفعل والسمتِ

يغيب السعد إن غبتِ ويصفو العيش إن جئتِ، أحبك زوجتى".

هدوء يملأ المكان، حتى الهواء خفيف هادئ، مطمئن إلى حد كبير.

عائشة

كنا نستيقظ الفجر، يعود "على" من المسجد نجلس معًا ثم نتشارك فى إعداد الإفطار، أو نصنع مشروبًا ساخنًا نتناوله فى الشرفة، نتحدث بلا انقطاع، يحكى وأحكى، نرتدى ملابسنا نُلقى نظرة فى المرآة-معًا- يغلبنا الضحك، ننظر فى الساعة نلاحظ أننا تأخرنا أسحب حقائبنا وأسبقه فى السير، يسحب الباب خلفه ويلحق بى إلى السيارة، اعتدنا أن نشغل الأذكار نردد معها، ثم تلحقها بعض الأناشيد، أحيانًا تدعونا أمى للغداء أو أم على، يلاقينى "على" بعد عمله أمام المدرسة التى أعمل بها، يصحبنى ونذهب، أو نعود إلى البيت نقف فى المطبخ، يحكى لى وأحكى له عن أحداث اليوم، أنهى الغداء بينما نحكى، وأحيانًا لا نتكلم، نتعاون صامتين، نأكل ثم يصنع "على" كوبين من الشاى ونجلس فى الشرفة ننظر إلى البحر أمامنا، أضع فرعًا من النعناع فى كل كوب ثم نجلس شاردين، كلانا تائه بأفكاره أو نتحدث، كنا نتحدث فـرن هاتفى، عدت للداخل لأرد، ولما أنهيت المكالمة كنت أجرى نحو على، قُلت:"كانت تحدثنى

فاطمة من فلسطين».

قال «على» وهو ينظر من الشرفة يتطلع إلى البحر أمامنا: «وماذا بعد؟»

قلت: «بإمكانها أن تحمل لى جوازات للسفر»، ولم أكمل حتى جُن على، قال: «نسافر بجوازات إسرائيلية! هل جُننتِ يا «عائشة»؟!»

قلت: «أكثر أمانًا، يعنى... أقصد حتى نصل، لن نذهب للنزهة تعلم».

ضحك، وقال: «هل أترك هذه الراحة والشرفة المُطلة على البحر وآخذك معى هروبًا إلى إسرائيل! نذهب لنعترف بهم كدولة!»، قال وهو يتجه إلى الداخل: «أرفض يا «عائشة»، أرفض!»

دخلت إليه فى الحجرة، كان يجلس على حافة السرير ويضع وجهه بين كفيه، بدا وكأنه على وشك البكاء، شعرت بحيرته، ذهبت إلى المطبخ وأعددت فنجانين من القهوة ووضعت كرسى خشبى صغير فى مواجهته، ناولته فنجانه، وجلست أراقبه وهو يرتشف بهدوء، انتظرته حتى بدأ يتكلم ويحلل فى الأمر من وجهة نظره ويسرف فى التفاصيل ثم يختصر، حتى شعرت به وهو يتكلم وكأنه يحدث نفسه، شعرت أنى غير موجودة معه فى الحجرة، كان مستغرقًا فى الحديث وأساريره تختلج تأثرًا بما يقول، مد يده بالفنجان فجأة وقد أنهكه الكلام، قال: «أطفئ الضوء»، تناولته منه وأطفأت النور، كدت أغادر، فهمس ألا أنسى إيقاظه للصلاة، ونام.

«الشوق يحمل المشتاق على الجد فى السير إلى محبوبة، ويقربُ عليه الطريق، ويطوى له البعيد ويهون عليه الآلام والمشاق»- زاد المعاد.

عدنا معًا بعد أن قضينا اليوم فى الخارج مع أهلينا، كان «على» صامتًا فى طريق العودة وشاردًا بعض الشىء، نظر إلى مطولًا ثم قال:«سنسافر غدًا بأمر الله»، وابتسم.

لم أرد عليه غير أنى ربت على يده وابتسمت.

أدار المفتاح فى باب الشقة وقد ملأه الارتياح بعد أن وصله جوابى، فأخذ يمازحنى ويتحدث عن كل ما سيأتى، لم تكن الساعة تجاوزت الواحدة والنصف من منتصف الليل حين كنا نتجهز للنزول، تحدث «على» مع أحد أصدقائه فحضر، تحدثا وأعطاه «على» مفتاح السيارة كما اتفقا مسبقًا، حملنا حقيبتين وركبنا السيارة، دارت السيارة فبدأ المسجل على الفور يُردد:

«لأنى أحمل الإيمان والجرح الفلسطينى

لأن غمائم الأفيون لم تخمد براكينى

لأنى لم أكن إلا جهادًا داميًا دينى

أشرد فى منافى الأرض أُجلد فى الزنازين

لأن القدس لى دار وأسوار وآثار

أحب القدس إن الحب لى ثأر وإصرار

وصوت حبيبتى فى الأسر للأحرار إعصار

يردد أرجعوا مجدًا على ساحات حطين».

وقتها كنت أراقب «على» فى مرآة السيارة، فى اللحظة التى نظر فيها فى المرآة فالتقت عيوننا، حسبته سيتراجع عن الأمر برمته، مال برأسه على زجاج السيارة وأخذ يدندن:

«سلكت طريقى، ولا لن أحيد، عزمت المسير بعزم الحديد، وودع دنياى قلب عنيد، فوجهت طرفى لأرض الأسود».

ففهمت أنه لاحظ ما أرنو إليه.

ودعنا صديقه على الحدود، أمسك «على» بيدى ثم أكملنا السير فى الظلام يُنشد بصوتٍ هادئ:

«سار فى الليل وحيدًا، قاصدًا أرض الجهاد».

أشد على يده لأنبهه أنه ليس وحيدًا فيضحك ويضع يده على رأسى يسحبنى أمامه، ثم ينشد:

«فى سبيل الله قمنا نبتغى رفع اللواء

لا لدنيا قد عملنا نحن للدين الفداء

نحن للدين الفداء

نحن للدين الفداء".

يتحمس فيعلو صوته أشد على يده فيخفضه كأنه يهمس:

"نحن للدين الفداء".

نهتدى بأنوار خافتة تكاد لا تهدينا، لولا نور الله فينا، مررنا بالجانب الآخر كانت هناك باصات، ركبنا أولهم وتحرك بنا، كان "على" يلومنى فى أول الطريق على تشبيثى به وعلى أنى سأعطله عن الأمر وسأثقل عليه، ولكنى لم أهتم، وعندما جلسنا فى الباص أشرت له برأسى على أخريات أتين مع أزواجهن، فأسند رأسى على كتفه ولم يتكلم.

كانت الساعة قد تجاوزت السادسة صباحًا حتى توقف بنا الباص، صف بجوار آخريين، ونزلنا، سار الشباب المسؤلون أمامنا، قالوا:"من هنا الطريق، اتبعونا"، سرنا خلفهم، قال رجل أمامنا لصاحبه:"وصلنا"، رأينا فى الجهة الأخرى أسلاكًا شائكة وعدد من الرجال، السلاح على أكتافهم، وعلى رؤوسهم خوذات من المعدن، مر الشباب وتحدثوا معهم، ثم عادوا وقد فُتح لنا الباب، لم يكونوا إسرائيليين كما همست لعلى.

بعد ساعة تقريبًا وصلت مجموعة أخرى من الناس يحملون أعلام ملّونة أسود، أبيض، أخضر، أحمر، أعلام فلسطين، همس "على" فى أذنى:"أتمنى لو أصعد الآن مع إشراق الشمس فأضع هذه الأعلام فوق

الأسلاك الشائكه فتراها أمى ترفرف من شباك بيتها».

قلت له:«إنما الصبر، أنت تعلم أن النصر فى طريقه، سيبلغ مرساه بمشيئة الله».

حضر إلينا أحد الشباب كان يضع حول رقبته حطة فلسطينية-مع أن «على» قد أشار إليه وهو يقول لى:«أظنه مغربى الأصل-، قسمنا إلى مجموعات وجعل لكل مجموعه قائد، سار أمامنا يدلنا على الأماكن وهو ينشد بحنجرة-ليست عربية خالصة- ويردد الرجال خلفه:

«لبيك إسلام البطولة كلنا نفدى الحمى

لبيك واجعل من جماجمنا لعزك سلما

لبيك إن عطش اللوا سكب الشباب له الدما، لبيك لبيك

هذى الجموع غدًا سيجمع شملها فى دولتى،

ولسوف تنهض كى تحطم باطلًا فى جولتى،

ولسوف تعلو فى الأفاق الشامخات بنودها

ولسوف تهتف باسمك الأبطال عاشت رايتى، لبيك لبيك».

كنت أحسب أننا سنقيم فى مخيمات، ولكنى وجدت بنايات صغيرة لا تعلو عن دور واحد، بدائية، يحوى بيتنا غرفة واحدة بها سريران، وعلى كل سرير سجادة صلاة، ثم ممر فى شماله حمام وعلى اليمين الصالة بعيدة

عن الغرفة التى ننام فيها، بها مكتبة صغيرة على الأرض، وكرسيين من الخشب ووسادتين على الأرض وثلاجة صغيرة جدًا تكاد تحمل زجاجتين وطبق، وفى المنتصف سجادة خضراء صغيرة، كان "على" وهو يطلعنى على البيت يصف لى مثلًا هنا سنجلس للأكل وهنا سأحضر كتبًا حتى لا تفتقدى مكتبة بيتنا، وهنا سأتى بأصدقائى المجاهدين فنضع الخطط وننظم الأمور، وهنا سنصلى، كان يصف لى المكان وكأنه يرى مكانًا آخر، كانت تحمل جدران البيت حياة أكثر مما فى مدينتا وما وراءها، يقول:"بهذا البيت يا "عائشة" سنشترى الجنة، ستشهد لنا كل أركانه إن شاء الله"، كان "على" يخرج صباحًا للتدريب، لم أكن أراه إلا لقيام الليل، كنت أجلس مع الأخريات نتعاون فى صنع الطعام للرجال، ترتيب ما نستطيع ترتيبه، ندرس من العلم ما يشاء الله لنا أن ندرس، نعود إلى بيوتنا بعد أن نصلى العشاء، أسحب الكرسيين من الصالة إلى الشرفة وأنتظر "على" إلى أن يأتى ونأكل سويًا، ثم إذا لم أشعر أن التعب يغلبه، نجلس فى الشرفة نتحدث وتستر الشرفة البساتين أمامنا، غالبًا ما كان يعود "على" بعدى بثلاث ساعات.

عاد فى يوم بدا لى أنه يطير، كان يتكلم عن المبارزات وعن التدريبات وعن أصدقائه وعلاقته بهم، كانت عيناه تضحك وكان يزداد نورًا

وأزداد خشية، أخبرنى أنهم قد اختاروه قائدًا للمعركة القادمة، كان متحمسًا للغاية، أوشكت على منعه، كنت أخشى أن أبكى فيحدث ما كان يخشاه وأخشاه وهو أن يبطئ سعيه أو يتوقف عن السير، بلعت غصة قلبى مع ما تبقى من دموعى جرعة واحدة، ثم أخذت أتحدث معه عن غزوات الرسول، واقترحت عليه أن يرتدى عمامة سوداء كما لبس الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الفتح، اتفقنا ثم أخذنا نتدارس غزوات الرسول وخُطبه، حتى أُذن للفجر، عدلت له عمامته بعد أن قبلت رأسه، ودعنى وأنا أحبس دمعاتى عنه، شغلتُ نفسى عن التفكير فيه بأمور عديدة، كنت أشعر بالتعب، بدا اليوم غير نهائى، وأحسست بتعب غريب، شعرتُ أن علىّ أن أرتاح، الكرسى فى الشرفة يدعونى، جلست قليلًا، أغمضت عينى، بادرت قبل أن يغلبنى النوم، بالانتقال إلى الحجرة.

– كنت أشعر به، يستقر بين جنبى، حتى رأيته فى المنام، كان صغيرًا، يُشبه أباه كثيرًا، يعتمل عمامتة السوداء، يكاد يختفى بداخلها من صِغره، ثم بدأ يكبر وهى فوق رأسه سريعًا كأنها تغذيه، رأيته يجلس فى ساحة المسجد الذى كان يجلس فيها أبى مع على، كان يجلس بجوار أبيه وهو يصلى، كان فى مثل عمره تقريبًا، انتهى "على" من الصلاة ثم

أقبل عليه"عبد الله" وهو يبتسم، وجلس بين يديه وهو يقول بحماس شديد:

"أريد أن أصبح مثلك عندما أكبر، أريد أن أكون قائدًا مثلك، أريد أن أشارك من يصلى ورائى ثواب صلاتهم كما تفعل"، نظر إليه "على" بحنان ثم قال:"لا تتمن أن تكون مثلى عندما تكون فى مثل سنى، عليك أن تحرص أن تكون أفضل منى، أن يتصل قلبك بالله قبل أن تصل إلى عمرى، أنا تأخرت فى الوصول إليه لأنى لم أجد من يعاوننى ويشد على يدى فى الطريق إلا بعد أن تعثرت قدمى مرارًا وتكرارًا حتى كدت أضل عنه، ولكن أنا هنا من أجل ذلك أنا سأكون معك حتى تصل إليه ولا تضل الطريق، أنا هنا حتى أسهل عليك عسرة الطريق منذ البداية، وأحمل معك هموم قلبك وأنت عليك أن تحرص على أن تكون أفضل منى، أن تصل أسرع منى، ولا أريد منك إلا أن تدعو لى كلما تذكرتنى، أنا يا ولدى ليس معى من المال الكثير، ولا جاه عظيم، وليس لدى شىء أتركه لك بعد موتى سوى الدين، وإنك لو فكرت كثيرًا فى شىء أعظم لما وجدت، وأنا لن أحتاج منك أكثر من أن تكون صالحًا، أريد أن أموت وأنا مطمئن بأن أعمالى لم تنقطع لأنك هنا، فاحرص على ألا تفارق الطريق الذى رسمه الله لك، لا تحيد عنه، كلما اشتدت

عليك الفتن تذكر أننا فى الدنيا لفترة قد تطول وقد تقصر، ومهما طالت فهى ما تزال قصيرة، فاحرص على جهاد نفسك طوال الوقت، ولا تترك قلبك تمزقه الذنوب، اغسله بالتوبة المستمرة، تجهز يا بُنى فإن الأمر عظيم". احتضن "على" عبد الله بقوة حتى كاد يسقط عن رأسه العمامة، وقال:"استودع الله قلبك يا بُنى"، حين فتحت عينى كان أول ما سمعته صوت نشيج على! كان يبكى! أظنها كانت أول مرة أراه فيها يبكى، كانت يداه مُلطخه بالدم، فزعت، جُننت، صرخت فيه:"هل أنت بخير؟! ماذا أصابك؟"، أخذت أفتش فيه عن جُرح فلم أجد! قال بصوت خافت بعد أن ألقى برأسه بين يديه:"قتلوه! قتلوا أصغرنا، أفضلنا، أشدنا إيماننا"، ربت على كتفه وأنا أقول:"لأنه كذلك يا حبيبى، لأنه كذلك اختاره الله، ليس هم"، وضع رأسه على كتفى وأخذ يُنشد وهو يبكى صاحبه:

"أحبتنا شممنا المسك فيهم، ونور الوجه لم يبدو حزينًا

كأن الحور قد نادت وقالت،(يبتسم) هلُم إلى السكينة يا حبيبى

هى الدنيا ورب البيت تفنى

ورب البيت تفنى

(ويزداد نشيجه وبكاؤه)

فهبوا للجنان مشمرينا، فهبوا للجنان مشمرينا".

بكى حتى انفطر قلبه، ثم اعتدل فى نومته، خلع عنه العمامة وذهب واغتسل ثم عاد كأنه آخر، يزداد نورًا وأزداد عليه خشية.

-كانت تراقب حركة يديه على سِبحته الزرقاء، فتكلمت بصوت خافت كأنما تحدث نفسها:"تُرى كيف سيكون حالنا إذا افترق أحدنا عن الآخر؟!"، رفعت عينها إليه وهى تسمعه يقول:"سأكون هكذا مشتتًا مُشردًا حائرًا تائهًا فزعًا ليس بى قوة"، وانتبهت إلى عينه حين شد على يدها مشيرًا بها إلى خرازات السبحه التى تناثرت أمامه.

-جلسنا للطعام ولا أحسبه تذوقه، تحدثنا كثيرًا، حدثنى عن المعركة، حدثته عن الرؤيا، ابتسم حتى دمعت عيناه، قبل رأسى، لم أفهم، سألته عن تفسيرها قال لست متأكدًا، غدًا نبحث عن طبيبة لنعلم عن صحة الرؤيا، وتأكدت الرؤيا، روحًا من "على" تنمو بداخلى، كان سعيدًا للغاية، شعرت به يكاد يطير لا تحمله قدماه، حتى إنه لبى لى ما كنت طلبته منه فى بداية قدومنا أن أشهد معه تدريبًا من التدريبات، ثم أعود معه آخر اليوم، ذهبنا، وأنا أمسك يده، جعلنى أحمل سلاحه وأمسك ذراعى يعلمنى كيف أستخدمه، ضغط بيدى على الزناد فطارت عبوة فارغة أمامنا كان يوجه نحوها السلاح فانتفضت وانتفض قلبى بدقاته، شعر بى فقال وهو يبعده عنى:"من يراك الآن لا يراك وأنت تصدحين بألبسته

لباس حرب، ناولته البندقية!»

– أجلسنى على مقربة منه وذهب، ثم جاءنى ضاحكًا وقد أحضر لى ماءً، وقال:«اهدئى قليلًا حتى أعود فآخذك»، كان يجهز الأبطال للمعركة، يقف فى المقدمة، أنزل طرف العمامة غطى بها وجهه ثم بدأ يقول: «تقدم يا فلان، تأخر يا فلان»، ثم ينظر إلىّ ويبتسم، وهو يردد ما كنا تدارسناه سويًا فى سيرة النبى يقول:«لا أقول لكم إلا كما كان يقول النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه:«سيروا بسم الله، وفى سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله، ولا تمثلوا ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليدًا»، ثم يسير فيسيرون خلفه، يزلزلون الأرض بأقدامهم، يرفعون السلاح عاليًا، أظنه نوعًا من أنواع التحية.

خرجت المجموعة، وانتظرنا أكثر من عشر ساعات، لم تصلنا أية أخبار، كنت أشعر بالتعب، طلب من أحد الأخوة أن يرجع بى إلى البيت، وظل هو.

لم نقطع ربع المسافة حتى سمعنا دوى رصاص حولنا، أظنه كان صوت تبادل رصاص لأنه كان من أماكن متفرقه، رفع الاخ الذى كنت أتبعه سلاحه بذراعه فى موضع الإطلاق وأسرع فى السير وهو يحثنى على المتابعة، كان التعب قد غلب منى مبلغه، لم أستطع الجرى، أسرعت

فى السير خلفه دون أن أعترض، لا أعلم ماذا حدث، كدت أعود إلى حيث على، خشيت أن أدلهم عليه إن سرت فى اتجاهه، أخذت أردد الشهادة، لا أعلم مما أهرب! ولماذا؟ ألم أتِ إلى هنا للموت؟ ها هو قد جاء، لماذا أفر منه؟ وإلى أين؟ لم أعلم لم علىّ المتابعة فى الهروب، لو كان يمكن سماع خفقان القلب لوصل صوت قلقى إلى على، أخذ الأخ يتبع طرقًا ملوتية إلى أن وصلنا إلى ممر نزلنا أسفله فإذا بنا قد وصلنا إلى المنطقة التى نعيش فيها، تركنى أمام البيت، وعاد، لا أعلم إلى أين يسير ولا أعلم ما آلت إليه الأمور مع على، أغلقت الباب بحرص واتجهت إلى أقرب سرير جلست على حافته، ثم أغمضت عينى وتركت جسدى يسترخى، أحسست بكم الإرهاق الذى أصابنى اليوم عندما شعرت بالراحة تنتشر فى أوصالى، لم أبك ولكن عقلى وقلبى ظلا يؤرقانى، يمنعانى من أن أهنأ بشىء من الراحة، اعتدلت وجدت بجوار الوسادة التى كان ينام عليها "على" آخر كتاب كان يقرؤه، كان لسيد قطب، تعجبت فى بداية الأمر لعلمى برأى "على" فى جماعة الإخوان، ولكنى علمت السر بعيدًا عن الجماعة عندما قرأت آخر صفحة ترك فيها علامة: "إن الطريق شاقة، إن الطريق ليست مفروشة بالزهور والورود، إنما الطريق مليئة بالأشواك" - سيد قطب.

نمت وأنا أمسك الكتاب بين يدى ما شاء الله لى أن أنام، لا أتذكر غير أنى استيقظت على صوت طرقات على الباب، توجهت بهدوء المستعد للأمر، وضعت خمارًا على رأسى وفتحت، كان بالباب رجلان يتوسطهما "على" مستندًا على أكتافهما ممسكًا بالعمامة بأطراف أصابعه، تظاهرت بالثبات وإن ظل شعاع صغير من الخوف يوخزنى وأنا أراه، كان يكفينى أنه ما زال يتنفس نفس الهواء الذى أتنفسه وأنه ما زال معى، فقط أحسست بضربات قلبى تعلو وتتسارع عندما رأيته أمامى، أفسحت لهم الطريق إلى الحجرة، وضعاه على سريره ثم خرجا، جلست بجواره فابتسم وأمسك يدى بقوة، قبلت يده الممسكة بكفى بحب وخوف وامتنان، سألته أخيرًا: "هل أنت بخير؟"، قال: "أنا بخير، مجرد وهن قليل، و..."، توقف يحاول ضبط أنفاسه، قرّبت قدح الماء من فيِه وسقيته، أكمل: "فقط أحتاج أن أبكى قليلًا، تعلمين، ليس من الألم إنما من الشوق".

كان وجهه وشعره وقميصه مبللين بدماء مختلطه بالعرق، شكله رث، ساعدته فى تبديل قميصه عندها لاحظت وهن شقه الأيسر، قال: "أشتهى شاى بالنعناع من يديك"، ورغم الدموع التى شعرت بها تملأ عينى إلا أننى تبسمت له، أحضرت كوبين من الشاى وقطعتين من البسكوت،

جلست بجانبه نأكل ونتحدث كعادتنا، كان يتحدث بصوت مبحوح يصدر عن شخص متألم، قال إنه عندما غادرت مع صديقه سمع صوت الطلقات فخرج خلفنا، فكان أول من جُرح، يقول: "الإصابه كانت بين منكبيه وفؤاده"، قال وهو يبتسم: "خشيت عليك أن يصيبك أذى وأنت تَسكُنين فؤادى، ولكنى تذكرت الحور فنسيتك"، كدت أقوم من جواره، فأمسك بيدى وهو يضحك قائلًا: "أتغارين؟"

ابتسمت بخبث قائلة: "ما يهمنى إنك الآن معى أنا، لماذا عُدت؟"، قال بصوت تصحبه بحة ما قبل البكاء: "ربما ما زلت غير صادق فى الطلب، ظننت أنى على مشارف الموت فإذا بإخوة يأخذوننى إلى المعسكر فأُعالج ويأتون بى إليك، ربما ينقصنى بعض الصدق والتخلص من الذنوب التى تعثر سيرى".

وضع يده على جرحه وأغمض عينه فشعرت أنه يتألم، أحضرت له بعض المسكنات وإبريقًا كان به سائلًا أحمر-كان قد أحضره أحد القادميين به- وصببت فى دورق صغير وقدمته له، قال: "أنّا لك هذا؟"

أخبرته أن أحد الرجلين قد أعطانيه قبل أن يرحل وقال: "سيساعده فى الشفاء بأمر الله"، وجلست بجواره أسقيه منه، مذاقه لاذع، شعرت بذلك وهو يغمض عينيه ويبتسّم قائلًا: "أراكِ تصرين على حمايتى من

الموت". أسكتُه.

وضعت يدى على صدره وأنا أتلو من القرآن حتى نام.

مر أسبوع على إصابته، وكان يبكى كلما حضر أحد الأخوة وحكى له عن الملاحم أو التدريبات، وكان يطلب منى أن أجهزه للخروج ويقول: "أُجيب ولو حبوًا"، أحثه على عدم الخروج بشتى الطرق حتى يتم شفاءه، لم يكن يستطيع رفع يده، أراه يحاول ولا يحتمل، حدث أمه وأخبرها عن حقيقة سفرنا وتحدث مع أبى، لامونا على الأمر، ولكنى رأيته لا يبالى فلم أفعل، تحدثت مع أبى، سألنى إن كنت سعيدة؟ نظرت إلى على، فشعرت أن كلمة السعادة فارغة ولا تحمل أيًا من المعانى التى تسكن قلبى الآن، أجبت:"صدقنى يا أبى، لا أطلب نعمة أكبر، الحمد لله"، أراد أن يُحدث "على" فتركت له الهاتف وجلست أراقبه وهو يتكلم مع أبى بطمأنينة من لا يحمل ثقلًا فى قلبه، كاد يخبر أبى بأمر حملّى فنبهته خشية أن يطالب بقدومنا، فامتنع، شعرنا بعدها أن همًا قد أزيح عن كاهلنا وسرنا نتعامل كالطيور محلقين لا نعول على شىء.

كان قد طلب من أحد أصحابه أن يحضر لنا منضدة وكنت قد نقلت الكرسيين من الصالة إلى الشرفة، وبالفعل أحضر الاخ المنضدة، أظنها من بيته، نضع كتابًا أو اثنين على الطاولة مع إبريق الشاى الساخن،

كوبين ووعاء يحمل قطع جبن بالزيتون الأخضر، والمسجل كنا قد أحضرناه معنا، نجلس فنتطلع إلى الأشجار أمامنا، جذوعها المتينة وجذورها الضاربة فى الأرض تشقها لتنمو فوقها أو تشقها لتنمو فى باطنها، تتشابك وتنتشر، أحب منظر الأغصان الخضراء الكثيفة التى تتخللها الزهور بألوان عديدة، تتردد حولنا أصوات أناشيد جهادية أو غيرها، ونتذكر الجنة وأشجارها ونرتب مطالبنا ونتواصى بالشفاعة لمن يسبق منّا، وفى الليل يشعل "على" النار ونغلق أضواء البيت ونجلس على الأرض ننظر للسماء الملآنة بمئات النجوم، وننشد سويًا أو أحضر مشروبًا وينشد "على" ورأسه مائلة على الكرسى أمامه أو على كتفى، تحت السماء يُفسح المجال لحوارات حيوية، كما هى عادتنا مؤخرًا كنا متجاورين ننظر للسماء ونتحدث أعرف عن وله على

بـمطالعة النجوم، كان لديه ولهًا شديد بها ولكننى لم أكن أعرف لذلك سببًا حتى قال لى:

"سأخبرك يا "عائشة" بسر تعلقى الشديد بالنجوم، ربما لا تتاح لنا الفرصة مرة أخرى".

أمسكت يده بلطف أمنعه عن قول مثل هذا الكلام.

احتضن يدى بيده مطمئنًا، ثم أشار إلى السماء قائلًا: "النجوم يا "عائشة"

كانت من أسباب هدايتى، يقول الملك سبحانه وتعالى:"وبالنجم هم يهتدون" هل تعلمين، كنت كلما نظرت إليها قُلت:"كما إنك يا نجوم بعيدة ونهتدى بك فى طرقاتنا فى الدنيا، فسأقتدى بالنبى وأصحابه والتابعين لهم وإن كانت المسافة بيننا بعيدة كما بينى وبينك، ولكنهم ينيرون لى طريقًا نحو الآخرة كما تنيرين أنت طريقى فى الدنيا، وكما تصاحبينى فى ليالى فإننى سأصحبهم معى فى صباحاتى وفى كل يوم".

ابتسمت، كنت أحب الأوقات التى يتخفف فيها "على" ويتحدث معى كما لو أنه يتحدث إلى نفسه.

كان الفجر قد اقترب فقطعنا كلامنا للصلاة، ثم عدنا بعد الفجر نتحدث،حتى غلبه التعب فأسندته إلى باب الحجرة فطلب منى الجلوس بجواره إلى أن ينام، لم يتحدث وأسكتنى عندما كنت أهم بالحديث، شعرت أنه نام، فعدت إلى الشرفة أجمع ما خلفناه من جلستنا كتبنا والأكواب والطعام، قبل أن أصل إلى الحمام لأغسلهم، دق الباب، لم أعرف ماذا علىّ أن أفعل، اقتربت من الباب فى هدوء دون أن أستطيع أن أمنع إحساسًا خفيًا بالحذر والقلق أن يصيبنى، كدت أسأل عن الطارق فإذا ب"على" يضع يده على كتفى وأشار برأسه إلىّ بالابتعاد عن الباب، غادرت ببطء إلى الحجرة، سمعته يتحدث مع أحد الرجال، كان صوتهما

مرتفعًا عن العادة، وجدت "على" يدخل الحجرة سريعًا، ثم طلب منى المساعده فى تغيير ملابسه، ولم يعطنى الفرصة فى منعه، ألقى عمامته السوداء على حافة السرير، تركنى ألف حول رأسه عمامة زرقاء، وترك طرفها تحسبًا لوضعها على وجهه، قبّل رأسى ثم أسرع فى الخروج.

يومان ولم يعدّ إلى البيت ولم أخرج، لم يحدثنى أحد من أصدقائه وحتى لم يأت أحد، كنت تقريبًا كل ساعة أهم بالخروج من البيت لأنشغل عن التفكير مع الأخريات، أو للبحث عنه، ثم أعدل عن الفكرة وأجلس فى الشرفة على كرسيه حتى يغلبنى النوم، فأدخل الحجرة أنتظره، فأنام ولا يأتى،(رأيت المجندين، ولكنهم مختلفين، السلاح على أكتافهم مختلف، على رؤوسهم خوذات حديدية، يجلسون فوق دبابات، ومنهم من يقف عند الحواجز يُشرعون أسلحتهم! الباب لا يُفتح، شعور غريب، مُرهق، تنسحب الروح ولا شىء، لا شىء أبدًا، غير أنى رأيته، الضوء خافت ولكنى أراه قريبًا، يهمس:"والله إنى لوددت أن أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل"، قُلت وأنا أتلمس وجهه بيدى وأفتش عن جروحه كما أفعل دومًا:"ماذا حدث؟ كيف وصلت! كِدت أضل الطريق"، رأيته ينزف لا أعلم من أين أفتش فلا أجد! أسأله، يربت على يدى فأشعر بالإنهاك والرغبة فى المزيد من التساؤلات، يخلع العمامة ويضعها بين يدى وهو

يكرر:"كما يجد أحدكم مس القرصة، يا "عائشة"، ليس هناك ألم يا عائش، انتهى عهد الألم"، أهمس مطمئنة:"مضى يا حبيبى مضى"، يشد على يدى، ويبتسم ابتسامة يملؤها ارتياح غريب لا يناسب إرهاق الأيام الماضية، ثم أراه يرحل، لا أستطيع النطق، لا أستطيع تحريك يدى لأتمسك به، حاولت أن أوقفه ولكن شيئًا حال دون ذلك).

أيقظتنى دمعة دافئة تسللت من عينى إلى خدى، فتحت عينى وقد انهار تماسكى وأخذت أبكى بصوت مسموع، رفعت الغطاء على وجهى فى محاوله لخفض صوت بكائى، مر وقت طويل لم أسمع صوته فيه، تنبهت على طرقات الباب، مسحت النوم عن عينى ووضعت خمارى على رأسى، لم أميز طرقته فسألت من خلف الباب عن الطارق، أجابنى باسمه-الأخ الذى أعادنى المرة السابقة-، فاطمئننت قليلًا، ثم سألته هل أرسلك "على" فى طلب شىء ما؟

-قال:"نعم أرسل لكم شيئًا، سأتركه أمام البيت، ثم قال هنيئًا لكم أختى".

-عندما استوعبت كلامه وفتحت الباب كان قد ابتعد، وجدت دفتر ل"على" أعرفه بنىّ اللون، كان يكتب فيه دائمًا، ولكنه الآن مختلفًا، كان ملطخًا بدماء وملفوف بعشوائية بعمامته الزرقاء، لم أبكِ ليس

لأنى مصدومة أو لشىء، فقط لا أريد البكاء، لم أجد فى نفسى حاجة إليه، ابتسمت وأغلقت الباب على نفسى، تذكرت كلامًا قد كان آخر ما قرأه "على" لى لابن القيم كان يقول:"إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم فسلموا ما وقِع عليه العقد، فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وعقد التبايع يُوجِبُ التسليم من الجانبين".

– وعدت إلى السرير حيث كانت آخر نوماته، فككت عمامته من حول الدفتر وصلّت إلى أنفى رائحة "على" فيها، تذكرته وهو ينشد،"أحبتنا شممنا المسك فيهم، ونور الوجه لم يبدو حزينًا".

–وكنت أعلم جيدًا أن نور وجهه لم يبدو حزينًا لأنه وكما أخبرنى فى الرؤيا:"انتهى عهد الألم، فمن أين يأتى الحزن؟"

فتحت الدفتر وبدأت أقرأ ما كتبه "على" بيديه، وكان أول ما كتب:

–"والحب–إن كان حبًا– لم يكن إلا عذابًا"– الرافعى

تجلس فى باحة الحرم امرأة وبجوارها طفل يرتدى عمامه سوداء تملأهما الطمأنينة، تقبض بيدها اليمنى على دفتر فى جيبها تتأكد من وجوده، تطمئن، فتخرج من جوارها قفص حمام، تضع الواحدة تلو الأخرى فى يد صغيرها فيطلقها فى السماء، تتبقى واحدة فترفع يدها وهى تطلقها وكأنها تحاول أن تحلق معها، فتظهر من أسفل كم عباءتها سبحة خضراء.

«قل للذين مقامهم في مُقلتي
ما ضرنا إن ناءت الآمال؟
في كل يوم تكبرون بداخلي
كالزهر يورقُ في الحياة جمال».

تمت.

إلى أمي آخرًا، الجميلة المحاربة: أتمنى أن يعوضك الله عن كل ذرة ألم بسعادة في الدنيا ونعيم في الآخرة.

إلى سيد قطب

إلى الرافعي

اللذين غيرا بأقلامهما وهما ميتان ما لم يستطع غيرهم من الأحياء تغيره في أجيال كاملة.

لكل إنسان شخصية وكذلك لكل كتاب.



تواصل معنا :

01067000701

E-mail -: Fasla .Pub@Gmail .com

Facebook .Com/Fasla .Pub